الفصل الأول

الاغتراب في الشعر العباسي

obeikandl.com

obeikandl.com

الدولة العباسية ... فاتنة الدراسيين والباحثين - فاتنة المبدعين ،نها جماع ما عرف التاريخ البشرى من تناقضات الفكر الانسانى وثراء الفنس الإنسانية.

كان أبو عبد الله السفاح بداية هذه الدولة عام ١٣٢هـ ، وكان بمثابة النبوءة لما ستكون عليه الدولة من اضطراب وتناقض ، فبينما -، وعدت الخلافة العباسية بابتهاج نهج الرسول والخلافه الشريفة في الحكم ، تخلى عن ذلك يوم توليه الخلافة حين " أمر بنبش قبور بني أمية بدمشق "[١]

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة سار على ذات الدرب ، حيث أمر بقتل أبى مسلم الخراسانى المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، واحتاج إلى أن يقتل " خلقا حتى استقام ملكه ... وهو الذي ضرب أبا حنيفة على القضاء ، ثم سجنه فمات بعد ايام ، وقيل قتله بالسم لكونه افتى بالخروج عليه"[٢] كذلك اقترن ذكر الخليفة القاهر بالله – اقترن – بالطيش وسفك الدماء.

وكان من المألوف في هذه الآونة أن يتربص العباسيون بكل من لا يشايع خلافتهم من يعطى ولاءه للأمويين ن فتحرشوا بالشيعة والخوارج والعلويين ومثل بهم ، كما نكل بالطالبين في عهد المنصور حتى ارتاع الخليفة المهدى عند تولية الحكم وتفقده لقصره ، حين فوجيء بجثثهم مكدسة في قبو مغلق.[٣]

وقد ادت هذه الحال إلى مزيد من الاضطراب في المجتمع العباسى ، وساعدت على التنكيل بكثير من الأبرياء ، فقد كان يكفى لمن يرغب في الانتقام من شخص ما أن يشكك في ولائه للعباسين ، مستغلا ما يمثله هذا التشكيك ، كما فعلت حاضنة جعفر بن المنصور بالفضل بن عمران كاتب جعفر[٤]

وكما اعتمدت الخلافة العباسية على أسلوب القمع وسفك الدماء ، اعتمدت أيضا على استبدادية الحكم، أو السلطة المطلقة للخليفة في تلك السلطة التي يحكمها في الغالب - المزاج الشخصي والأهواء ، المتقلبة ، حيث يولي

---

(١) أبو العباس أحمد بن يوسف الفرماتى . أخبار الدول وآثار الأول ١٢٨٢هـ /ص ١٤٦.
(٢) محمد بن جرير الطبرى . تاريخ الملوك والرسل ، المطبعة الحسينية بمصر . الطبعة الأولى المجلد الثالث /ص ٤٤٩ بتصرف .
(٣) المصدر السابق /ص ٤٤٩..
(٤) تاريخ الملوك والرسل . ص ٤٣٩ / ٤٤٠ / ٤٤١ / المجلد الثالث / بتصرف .

الخليفة "الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة المحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلهم جميعاً حسب مشيئته وهواه ، وكان يختار الوالى غالبا من اهل بيته ، أو من اكفاء حاشيته، وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده." [1] ويمتلىء تاريخ للطبرى بأحداث العزل والتولية السريعة ، حتى أننا نرى اسماء بعينها تعزل وتولى أكثر من مرة في سنة واحدة[2] مما يؤكد وجود اضطراب في السياسة الداخلية للدولة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ـ بل لقد غص المجتمع العباسى بالفتن الداخلية والثورات المختلفة ، التي قام بعضها بوازع من العصبية كتلك التي قامت في الشام عام ١٧٦ هـ حيث " قتل من النزارية واليمانية على العصبية من بعضهم لبعض بشر كثير " [3] وكانت ثورة الرواندية على أبى جعفر المنصور مثالاً للثورات المتطرفة المرتكزة على معتقدات غريبة عن الاسلام.

وقد نالت بعض هذه الثورات من هيبة الخليفة وصورته ، فقد قتل المسترشد بالله جماعة من الباطنية، كما بلغت قوة القرامطة حد أن استبقى زعيمهم أبو ظاهر القرمطى – استبقى – الحجر الأسود في حوزته عشرين عاما. [4]

وكان بيت الخلافة نموذجا للاضطراب الصراع المسيطرين على المجتمع العباسى كله ، فقد تقابل ذوو الارحام سعيا وراء الحكم ، وقبل أن الخيزران كانت وراء قتل ابنها الخليفة الهادى عام ١٧٠هـ لاستئثاره دونها بالخلافة ، كما اشتهر أمر قتل المأمون أخيه الأمين عام ١٩٨هـ ، وتواطؤ الخليفة المنتصر بالله مع الترك لقتل ابيه المتوكل ، كذلك حفظ لنا التاريخ حادث قتل الخليفة المستعين بالله على يد الخليفة المعتز ، وقتل معز الدولة للخليفة المستكفى .

بالإضافة إلى كل هذا الجحيم استطاعت الدولة العباسية أن تحتمل وجود العنصر الأجنبي فيها مزاحما للعربى ، وقد تدخل هذا العنصر في شئونها ، وسيطر على الأمور فيها ، مستغلاً كل الاضطرابات التي وصفناها ففي عهد

---

(١) د. شوقى ضيف للعصر العباسى الأول . دار المعارف . ١٩٦٩م ط ٢/ص ٢١.
(٢) تاريخ الملوك والرسل . مج ٣ /ص ١٤١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣.
(٣) السابق . مج ٣ /ص ١٣٩.
(٤) لخبار الدول . ص ١٦٣.

المأمون نجد أسرة بني سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة وتمكن بدورها للتقاليد الفارسية في الحكم [1] وكان الواثق بالله أول من استخلف اشناس التركى ، وكانت الخلافة في ايامه تدور على اتياح ، وعلى كاتبه سليمان بن وهب ، وعلى اشناس وكاتبه أحمد بن الخصيب [2] أما الخليفة المعتصم فقد عهد للترك بأمور الدولة عام ٢٢٥هـ .

وكان عهد القائم بأمر الله ابتداء عند السلاجقة وانتهاء عهد بني بويه ، وقد تمكن الفرنج من الشام عام ٥١٨هـ ، وانتهت الدولة العباسية على يد التتار عام ٦٥٩هـ .

وهذه الخاتمة البشعة لا تبدو غريبة على دولة تفككت كل أمورها ، دولة يستطيع فيها الوالى أن يستأثر بمصره ويخير هذا المصر [3] ولعل وصف القرمانى للدولة العباسية أن يكون جامعا، فهو يصفها بأنه فيها" افترقت كلمة الاسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ودخل الأتراك والديلم في الديوان ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدة اقسام ، وصار لكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر ." [4]

وإن من يبحث في الحياة الشخصية للخلفاء ، يجد في سيرتهم ما يبرر تفكك المجتمع العباسى واضطرابه ، فقد كان الخلفاء – الا القليل منهم – تتناهبهم الشهوات والملذات ، وكانوا في عماء عما يعانيه رعاياهم من شظف العيش ، فحين تولى الأمين الخلافة " فرق الأموال ، وانعكف على الشراب ، ومنادمة الفساق ، وارسل إلى البلاد فجمع المغانى ، وقسم الأموال في الحظيات والنساء واشترى غريبة المغنية بمائه ألف دينار ، واخذ جارية ابن عمه بعشرين ألف دينار" [5]

أما المتوكل ، فقد ذكر المسعودى أنه كان له أربعة آلاف سرية ن وقد وطى الجميع " [6] وقد فصل الاصفهانى [1] حديثا طويلا عن إسراف الرشيد

---

(١) د.شوقى ضيف . العصر العباسى الأول ص ٢٤.
(٢) أبو فرج الاصفهانى . الأغانى . الجزء العشرون تحقيق على النجدى ناصف اشرف محمد ابو الفضل ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب / ص ٢٦٩.
(٣) تاريخ الدول واثار الأول . ص ١٦٨ الجزء الثاني
(٤) السابق ص ١٤٦ . الجزء الثاني
(٥) السابق جـ ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ بتصرف
(٦) السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥٩

ومجونه مما هو مشتهر ومعروف.

وقد بلغ استهتار الخلفاء بمال المسلمين إلى حد أن كان هذا المال رهين الغضب والطرب اللذين يتحكمان في مزاج هؤلاء الخلفاء ، فقد كان يكفي الخليفة أن يستمع إلى قصيدة احدهم وينال رضاه الشخصي لتقطع صاحبها ولاية بأكملها ، وكان الوزراء ينتهجون ذات المنهج . فقد اقطع لوزير الفضل بن سهل مسلم بن الوليد البريد ببرجان [٢]

وهذا السلوك لا يغبط له إلا أصحاب المصالح الخاصة وأصحاب المطامع وعلى رأسهم حاشية الخليفة ، وباستطاعة هؤلاء أن يعطلوا اي اتخاذ للإصلاح ، وأى نية للتعبير ، ولذلك لاقى الخليفة المهتدى بالله كل العنت عندما حاول أن يعيد سيرة أمير المؤمنين عمر بن العزيز ، وحورب من الأمراء أنفسهم الذين يتهددهم مثل هذا المسلك الصحيح ويغلق عليهم أبواب الرغد ، وقد قتل المهتدى بعد خلافته بخمسة عشر يوما فقط[٣] .

كذلك كان الشعراء والمترجمون والأطباء والعلماء يفيدون من هذا البذخ كثيرا [٤] لكنهم في الغالب تابعون لتقلب أهواء الخليفة ومن معه متعرضين لكل مفاجأة منهم .

وفى مقابل كل هؤلاء كان عامة الناس وأوساطهم ممن لم تكن لهم حظوة أو وساطة أو موهبة بارزة " من التجار وغيرهم تتقلب بين الشقاء والنعيم. " [٥]

وقد ألب هذا الوضع الاجتماعي الناس على حكامهم ، وكان في رأى كثير من الباحثين " السبب الحقيقي في كثرة الثورات على العباسين - وخاصة في ايران ، وايضا لعله السبب الحقيقي في تعلق الناس المهدى المنظر من ابناء على الذي ينشر العدل الاجتماعى في الأرض ، مما هيأ لكثرة الجمعيات السرية

---

(١) الأغانى / الجزء التاسع عشر . تحقيق عبد الكريم ابراهيم الغرباوى إشراف محمد ابو الفضل ابراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ م، ص ٢٨٢.
(٢) الأغانى الجزء التاسع عشر . ص ٢٧٩
(٣) تاريخ الدول واثار الأول ص ١٦٣.
(٤) د. شوقى ضيف العصر العباسى الأول ص ٤٨.
(٥) السابق ص ٤٥

، واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها." [1]

وكان وجود العنصر الأجنبي – الذي سلفت الإشارة إليه – من عوامل استقرار المجتمع العباسي في المجون واللهو ، - أو على الأقل من عوامل غلبة هذه الحياة عليه – فقد " ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ، ويمعن الناس معهم ." [2] وقد أدى هذا إلى ظهور قضايا جديدة على المجتمع العربي كقضية الزندقة التي زادت حدتها في عهد الخليفة المهدى ، حتى لقد جد في طلبهم ، واعتبرهم شغله الشاغل [3] وكان الاتهام بالزندقة مجالا رحبا يستطيع الحاكم من خلاله التخلص ممن لا يرغب فيهم ، كما كانت فرصة سانحة يوقع فيها الناس بعضهم ببعض ويشون بمن ينافسهم أو يعاديهم.

كانت هذه الحياة المطربة وهذا الوجه الماجن فيها دافعاً لفريق كبير من الناس كي يتجه إلى حياة التمسك والزهد ، فامتلأ المجتمع العباسي – على اختلاف مراحله – بأسماء الزاهدين ومآثرهم " وفى البيان والتبيين ، وعيون الاخبار ، والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهير الزهاد أمثال سفيان الثورى المتوفى ١٦١ هـ - وداود الطائى المتوفى ١٦٥هـ ، وعبد الله بن المبارك المتوفى ١٨١هـ ، والفضل بن عياض المتوفى ١٨٧هـ ، وسفيان بن عيينه المتوفى ١٩٨هـ ، ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى ١٧٧هـ ، وهو الذي أنشأ اول رباط - أو اول صومعة للناسكين في عبادات بالقرب من الكوفة." [4]

وتعددت طرائق العبادة الصوفية ، واشتهرت - وعلت اسماء شيوخها كابراهيم البلخى ، ورابعة العدوية ، ومعروف الكرخى وبشر بن الحارث ، وغيرهم [5] .

وان اختلاط الحضارات الأجنبية بالحضارة العربية في المجتمع

) العصر العباسى الأول ص ٥١.
(٢) السابق ص ٦٥ .
(٣) الطبرى تاريخ الرسل والملوك . المجلد الثالث / ص ٥٢٩ ، ٥٣٠.
(٤) العصر العباسى الأول . ص ٨٥ بتصرف .
(٥) السابق ص ٨٥ ، ٨٦ بتصرف .

العباسي وانفتاح الحياة العباسية جلب كثيرا من الايجابيات مثلما أدى إلى كثير من السلبيات ن فهو لم يتسبب فقط في انتشار المجون والخلاعة والاسراف المادي والاضطراب السياسي وغير ذلك بل كان داعيا إلى حياة علمية مزدهرة ، وكان بذخ الخلفاء نفسه من عوامل انعاش هذا الحياة العلمية أيضا ، فلما " فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ، ورثوا ما في الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية ، والآرامية ، وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، واخذوا يكونوا من ذلك ومن تراثهم العربي الخالص حضاراتهم الإسلامية [1] وقد ساعد على ذلك اتخاذ أصحاب الحضارات الداخلية اللغة العربية لغة اساسية لهم [2] ولا ينسى تاريخ الأدب أسماء من نبغ منهم في هذه اللغة وأضاف إليها ، كابن المقفع والجاحظ وبشار بن برد وأبي نواس ، ولا ينسى أيضا إسهام جماعات منهم في جميع تاريخ الأدب كالبرامكة الذين اشتهروا بحب اللغة العربية والإلمام بأسرارها .

وكانت الترجمة مزدهرة في العصر العباسي على اختلاف مراحله ، وكانت من مظاهر الازدهار العلمي ، وقد بلغت أوج نشاطها في عهد الخليفة الرشيد الذي أذكى جذوتها بإنشاء دار الحكمة التي جلب إليها الاسفار النفسية من بلاد الروم[3] .

وقد اشتهر كثير من الخلفاء – حتى أولئك الذين عرفوا بالمجون – اشتهروا – بالاهتمام بالعلم ، وتقريب أهله من مجالسهم ، بل كان بعضهم ذا ميل علمي أو فلسفي أو فني عال ط فكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفا ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية وبالفلسفة ، وعلوم الأوائل ، فمضى يحول مجالسة في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة [4]

ومع ذلك لم تنج هذه الحياة العلمية من هيمنة السياسة عليها ، أو تدخل السلطة السياسية في شئونها وتلوثيها فهددت الحياة الفكرية أكثر مرة التي تعرضت لاستبداد الرأي الواحد ـ فحين مال المأمون إلى المعتزلة ألزم الناس أن

---

(١) العصر العباسي الأول /ص ٤٤.
(٢) السابق ص ٩٤
(٣) العصر العباسي الأول . ص ١١٢.
(٤) السابق ص ١٠٥

يعتقدوا أن القرآن مخلوق لا مخلوق واستباح المأمون ممن قال العكس ، بل أوقع ببعض العلماء في السجون وامتهن كبرياءهم واغتال إنسانيتهم [1]

وكان للأدب نصيب عال من الاهتمام في المجتمع العباسي ، وعلى يد الخلفاء أنفسهم ، فاشتهر الرشيد بميله إلى الشعر والأدب [2] وكانت الحياة الميسورة لكثير من الأدباء على وجه العموم دليلا دامغا على ما كان يتمتع به هذه الجانب من الإبداع من اهتمام وحظوة.

كذلك تمتعت الحياة العقلية بالرعاية في هذا العصر ، وكانت كثرة اتجاهاتها وتنوعها دليلا على ذلك ، وقد اشتهرت بعض الحركات العقلية وأثرت عل كثير من مناحي الحياة العباسية ، وكان الاعتزال يقف على قمة المؤثرات العقلية لهذا العصر " فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم ، وأن وجهة حسب مشيئته " [3] وكان للاعتزال دول خلقتها أهواء الخلفاء ، فبعد أن سطع في دولة المأمون ، تعرض لمحنه كبيرة بعد أن زال التأييد الرسمي له ن ورغم ذلك ظل مؤثرا عقليا عظيما في الحياة الفكرية العامة والخاصة للعصر ، بل ظل محركا قويا لمختلف جوانب هذه الحياة ، حيث " نجح نجاحا كبيرا في أن يصبغ العقول بصبغة فلسفية ، وأن يمرنها تمرينا واسعا على دقة التعليل والمهارة في الاستنباط لخفيات المعاني ودقائقها ، والبراعة في تفريقها وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناضج والبرهان الساطع ، وسرت من ذلك أسراب في جميع جوانب الفكر القياسي ، إذ اكب الناس على مناظرتهم ، واكب معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعرا نابها في هذا العصر الا وتتلمذ به ، على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وابان اللاحقي والعتابي ، ومنصور النمري وأبي تمام"[4]

ومثلما عب الناس من مجون العصر العباسي واضطرابه ، وترفه ، وزهده ، أفادوا من سموق حياته العقلية والعلمية حيث أتيحت لهم المناظرات المتنوعة والجلسات العلمية بالمساجد ودكاكين الوراقين [5]

---

(١) الطبري تاريخ الملوك والرسل الجزء العاشر / ص ٢٨٦
(٢) السابق ص ٢٨٨ / ٢٩٠ / ٢٩١.
(٣) العصر العباسي الأول ص ١٣٣
(٤) السابق ص ١٣٣
(٥) السابق ص ١٣٥

والحياة العباسية اعمق واعقد من ان نشير في المقدمة في هذه الصفحات السابقة ، ولكنا لم نرد الإلمام الدقيق ، بل أردنا الإشارة الى الخطوط الرئيسية والعلامات البارزة لنستطيع أن نقف على تلك المفارقة بين حياة البادية والحياة العباسية ، بل بين الحياة العباسية وما سبقها مباشرة من حياة حكمها بنو أمية ، تلك المفارقة في نفس العربي ليست بالشيء الهين ، بل أن صراع العربي بين ما أورثه من سلوك ومعتقد وعلم ومعرفة وبين زلزال هذه الحياة الجديدة صراع عميق الأثر ، واضح النتائج في طيات هذه الحياة.

ولعل الحياة العقلية والحياة الإبداعية أن تكونا مرآة صادقة ينعكس عليها هذا الصراع وهذا التصدع ، فنحن نرى الشعر في هذا العصر وقد تغير تماماً " صار رؤية وموقفا ، وصار حلما وفكرا في ذات الوقت ، واصبح الشاعر احياناً يحلم بعوالم خاصة ، واصبح احياناً أخرى يتوجه إلى الإنسان ، / يفكر فيه ، ويتأمل موقفه من الزمن والكون والمصير ، كما هو الحال في بعض تجارب أبي نواس وابي العلاء والمتنبي "[1]

وقد بحث الشاعر عن ادوات مميزة للتعبير عن اغترابه ، ووجدها فكانت السخرية ، والدعوة إلى العزلة ، والزهد ، وكان الهجاء وكانت أحياناً أخرى دعوات إلى الهدم ، ولكب كل هذا أداء تعبيري متفجر ، فقد تميز الشعراء المغتربون في العصر العباسي باصالة الابداع ، وتفرد الصياغة وتطور الأعراض ، وقد اثار أبو تمام الجدل بشعره وكذا بشار وابو نواس والمتنبي وابو العلاء ، واثار كل هؤلاء قضايا جديدة أيضاً مستفزة لكنها صادقة في التعبير عن عوالمهم الجديدة

وبذلك كان الإبداع يحاول أن يصوغ واقعا جديدا يرضى عنه الشاعر كان يحاول أن يكون استعاضة عن عالم قبيح ، " لأن العلاقة بين الروح والعالم الموضوعي ، بين الحقائق والأحلام ، بين النفس والواقع الخارجي متوترة ، هناك في العمل الفني هرب وعودة إلى الواقع معاً "[2]

لعلها اذن أن تكون ازدواجية الشاعر ذاك الذي لا يتصل الا منفصلا ولا ينفصل الا متصلاً ، لأنه في كل حال ، غير قانع غير راكد غير هادئ ،

---

(١) د. محمد زكي العشماوي . موقف الشعر من الفكر والفن الحياة العباسية دار النهضة العربية . بيروت ١٩٨١ / ٠ ، ص ١٠

(٢) د محمد زكي العشماوي . موقف الشعر من الفكر والفن في الحياة العباسية / ص ١٠

غير مستسلم ، غير مطمئن وشاعر العصر العباسى لايني عن التساؤل الحاد عن وجوده إن ظاهرة الشعور بالغربة والانفصال عن الآخرين " صدأ العش " كما يعبر أبو تمام ، نسغ اساسي يجرى في تجربة أبى نواس ، وابى الروحي وابن الرومي وابي تمام والمتنبي وابي العلاء ومعظم الشعراء في المرحلة العباسية [1] ولعل تميز هؤلاء ابداعياً وعقلياً يكون مبرراً كافياً لنقف عندهم في هذه الدراسة – من خلال هذه الصفحات لنبحث في ماهية اغترابهم وكيف استطاعوا التعبير عن الاغتراب بما ميزهم فنيا.

الاغتراب في شعر بشار بن برد :

بشار بن برد بصمة واضحة في الشعر العباسى ، لا يستطاع اغفاله حين التحدث عن روح المغامرة والجرأة ، ولا يغفل إذا كان الحديث عن التمرد الابداعى والتجديد والاصالة في الشعر ، أنه مقترن في اذهان الكثيرين بالشك والحيرة والعقيدة المضطربة ، والتهتك الخلقى ، وإن نظرة إلى مجموع ما اشتهر به تؤكد لنا تميزه وتؤكد انه كان يضج بالحياة وبالاغتراب .

ولد بشار عام ٩٠ هـ وتوفى ١٦٨ هـ ، فعاصر بداية الدولة العباسية ولمس بيديه هذه البقعة الزمنية الثقيلة من الحياة العباسية ، وهى تضج بالاضطراب والعنف والتناقض .

وكان شعر بشار يعكس شرها عنيفا للحياة حتى تكاد تطمئن إلى أن هذا الشره هو العنوان الأمثل لحياة بشار كلها ، نلمس هذا الشره في هجائه وفخره ، وغزله ، ومدحه ـ يصاحبه يقين يصارع هذا الشره ، هذا اليقين هو استعصاء الإشباع عليه ، ولعل هذه المفارقة تتبدى في تكوين بشار نفسه تكوينه المادى ، فقد كان ذا جرم عظيم لكنه ظاهر الدمامة ، دمامة الوجه ، وعماء العين ، وهناك مفارقة أخرى في حياة بشار ، هي انه من جنس فارسي ويعيش في مجتمع عربي ولذلك لم يسلم من غمز المجتمع ، وسخريته والتشكيك في نسبه وهويته ، أو على الأقل التشكيك في حسن مقاصده.

كان بشار يعشق الحياة التلقائية العفوية ، هذه الحياة التي يرفضها المجتمع ، ويجاهدها بأعرافه، وكان انتهاجه لهذا النهج من عوامل اصطدامه

---

(١) أدونيس مقدمة للشعر العربي دار العودة بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨٣م / ص ٣٩

بالمجتمع ، وأضيف هذا العامل إلى كونه فارسي النسب ، والى ما وصف به من خلق فط سليط ، بفعل العماء والصدام مع المجتمع

واتسعت دائرة العداوة بين بشار بن برد والمحيطين به ، وقد واجهها بهجاء ، مقذع سام ، جعل بعض الباحثين [1] يحسنه بالكره العميق للناس في عمومهم أعداء واصدقاء ... ولكن التفاتة سريعة إلى الديوان تطلعنا على نفس بشار الجياشة بالمشاعر الإنسانية ن والمستشعرة لقيمة الصلات البشرية ن بل نقف على معاناة بشار بن برد من فقد (الأخر) والجوع الدائم للأصرة البشرية الدافئة ولعل هذه المعاناة جعلته يهون من أمر الترحال ومشاق السفر ، إذا ما اثمر السفر صديقاً كما يقول في ديوانه :

لعلك تستدني بسيرك في الدجا اخا ثقة تجدي عليك مناقبه

إن الظمأ إلي الإنسان يلح علي شعره، فنري قسما كبيرا من هذا الشعر تملؤه المعاتبات بينه وأصدقائه، بما يشير إلى خلل في علاقة بشار بالمجتمع، يقول:

يا صاح قد كنت زلالا عذبا ثم انقلبت بعد لين صعبا
مالي، وقد كنت لكم محببا أقصى، وما جاوزت نصحا قصبا

ونراه يصف الصديق في شعره بأنه منه في مكانة اليدين من الجسد[2] لذا لا يملك إلا أن يغفر له كما يغفر ليديه، لذلك يتفنن في شعره أصول الصداقة، وأصول كل علاقة إنسانية أخرى، كما يغص هذا الشعر بمشاعر المرارة من المجتمع وافتقاد أي أمل في البناء فيه[3] وأي جدوي منه.

وحين تطول معاناة بشار من هذين الشعورين: الشعور بقيمة الإنسان، والشعور بالمرارة من المجتمع، ينتصر بشار في الغالب للإنسانية، فيقف به انفصاله عن مجتمعه علي باب حكمة رائعة واسعة نبيلة، تقضي بأن لا مناص من الكدر إذا أردنا الإنسان العذب في هذه الحياة، يقول بشار:

---

(١) د. محمد النويهي شخصية بشار . مكتبة النهضة المصرية . ط ١، ١٩٥١م /ص ٧٨ بتصرف .
(٢) السابق جـ ١/ص ١٣٩.
(٣) ديوان بشار بن برد / ج٢ / ص ١٣٥

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ... أخاك، لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا، أو صل أخاك ... فإنه مفارق ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذي ... ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه[1].

إن البيت الأخير من هذه الأبيات يبدو وكأنه خلاصة تجربة عميقة في الحياة، يبدو وصفا للاغتراب الاجتماعي، لأنه وقوع بين شقي رحي: أما كدر: وإما موت ولكل منهما طريق موحش.

ولا تخلو مراثي بشار كذلك من هذا الشعور بافتقاد الآخر، بل إن هذا الشعور كثيرا ما يكون داعيته للسخط على قوى الزمان السالبة للأحبة، يقول:

ذهب الدهر بسمط وبرا ... وجري دمعي سحا في الردي
وتأبيت ليوم لاحق ... ومضي في الموت إخوان الصفا
ففؤادي كجناحي طائر ... من غد لابد من مر القضا

هذه المشاعر الرقيقة وهذا التوجه إلي الإنسان اللذان يمتلئ بهما شعر بشار بن برد يقفان على طرف نقيض مع ما اشتهر به بشار من هجاء مقنع مقذع يكاد يبدو تشفيا من المجتمع وإيلاما صريحا له.. والحقيقة أنه لا أساس للتناقض بين الحالين، فبشار إنسان مفطور على حب الصلة الجمعية والاحتياج إليها، لكنه لاقي صدودا ما من مجتمعه- أو من بعض فئاته- لقبح صورته وعمائه ونسبه الفارسي[2] وضعة مكانته الاجتماعية ونحن ندرك ما كان لهذه الأمور من أهمية في عصر بشار الذي كان قريب العهد بالجاهلية المحتفية بالنسب والأصول، والجنس العربي الخالص، والمشتهرة بالفظة والطباع الحادة.. كما تألب حساد بشار عليه وأوغرت صدورهم حقدا لجدة شعره وتميزه، ومن ثم وجدوا في نسبه وعمائه وهيئته وغير ذلك ما يشفي غليلهم فضخموا حجم المساوئ وجعلوها عنوانا لبشار الذي لم يجد غير اللسان الحاد السليط يدفع عنه مثل هؤلاء.. ومن ثم توطنت بين بشار ومجتمع أسس انعدام الثقة، وتبودلت السخرية اللاذعة[3] والتقشي المر، وكل ما يوحي بالكراهية

---

(١) السابق/ص ١٢٨.
(٢) ديوان بشار بن برد/ الجزء الأول/ص ٣٠٩
(٣) المصدر السابق. الجزء الأول ص ١٢٣

العميقة للجنس البشري في الظاهر.

احتلت علاقة بشار بمجتمعه جانبا كبيرا من نفسه، لذلك أوسع قسما كبيرا من شعره لها، يصنف فيه أنواع الناس، حتى أنه يوجه إلي ممدوحه ما استخلصه من فلسفة فيهم فيصفهم بأنهم في حسدهم لا يختلفون[1] عن سم العقارب، وإن حسدهم له هو الحسد الذي تقاتل بسببه قابيل وهابيل من قبل[2] وكان بشار يبحث في تاريخ الإنسانية عما يبرر له سلوك المجتمع معه، ولعل تكرار الحسد في الديوان يؤكد أن مكانة بشار الشعرية كانت من عوامل عداء البعض له.

لذلك لا نندهش حين يطمئن بشار إلي معني العزلة، وحين يرتاح إلي ما فيها من خلاص، فيحاول أن ينفي المجتمع من ذاكرته، يحاول أن يند فطرة التواصل والحنين إلي ضمير المخاطبين ويلقي بخلاصة تجربته مع الآخرين في بيت لا نظن أن شاعرا من شعراء الاغتراب في العصر العباسي نجا من دلالته ، يقول بشار يصف نفسه:

مولعـــا بـــالخلو، ممـــا الاقـــي أحسب العيش أن أكون الوحيد!

لعل موقف المجتمع من شعر بشار ، أكثر الأسباب وصولا يجه إلي الانفصال عن السائد ورفض الواقع المحيط، لكننا لا نقصد بهذا القول أن شعر بشار استنكر من عموم المجتمع، بل استحسنه الكثيرون في زمانه خاصة غير الشعراء، واستقبله جمهور من عامة الناس بالإعجاب، لكنه استنكر في الأوساط الرسمية كثيراء أي من الشعراء وكثير من النقاد، واستهجنت نزعته التجديدية- التي هي في أصلها مذهبه التلقائي العفوي الذي يواجه به الحياة- هذه النزعة "لم ترض أئمة اللغة والأدب، فقد كانوا محافظين أزعجهم هذا الأسلوب الجديد المبالغ في السهولة، وظنوه ركاكة وضعفا.. ولم يبدأ هؤلاء العلماء في تغيير رأيهم عن إخلاص واقتناع إلا بعد وفاته، حين زالت شخصيته البغيضة التي طالما أقضت مضاجعهم"[3] وبذلك خلط كثير من الناس بين موقفهم من شخص بشار المفعم بألم العاهة، والاختلاف في الجنس، وبين موقفهم من شعره.

---

(١) ديوان بشار بن برد. جـ ٣، ص ١١١
(٢) المصدر السابق/ص ٢٤٣ الجزء الأول
(٣) ديوان بشار بن برد. الجزء الثاني/ص ١٨٧

ولعل جرءا كبير من عداء المجتمع لبشار يرجع الي اشتهاره بالتمرد الحاد علي كثير من الثوابت والمعتقدات الفكرية والسياسية والشعرية، بل والدينية أيضا. وقد اتخذ بهذا التمرد كثيرا من الجدران بينه وبين المجتمع، ولولا أننا لسنا في مجال إناضة وتفصيل لوقفنا وقفة لائقة عند موقف بشار من المذاهب الفكرية السائدة في عصره، حيث رفض كل هذه المذاهب وآثر الاعتزال، إلي حد اعتقاد البعض أنه "كان من أئمة المعتزلة وقادة الرأي بينهم"[1] وسواء أصح هذا القول أم لم يصح، فهو علي كل حال يشير إلي ما اشتهر به بشار من إيثار الفكر والميل إلي الرأي لا الرواية، والقدرة علي التأويل للظواهر، وتكوين الرؤي الخاصة في كل أمر، والاطمئنان إلي شريعة الفطرة الإنسانية والإيمان بالعقل إلي غير ذلك مما قام عليه مذهب الاعتزال.

لذلك لا نملك في هذا المجال الضيق إلا أن نتشكك فقط فيما وجه إلي بشار من اتهام في عقيدته، وما ألصق به من روح العبث فيما يخص أمور الدين الحنيف[2] ونعتقد أن روح بشار الثائرة كانت وراء ما تردد حوله من شك واتهام، فقد كان عنيف الإحساس بطاقته الداخلية والقدرة علي الإضافة إلي الحياة، وكان أيضا مستشعرا لعظم ألمه واضطراره إلي تشذيب هذه الطاقة وهذا التوجه. وكان كثير المقارنة بين هذين الحالين المتناقضين، صريحا في استكناه نفسه وتعقيبه علي ما يلم به "قالوا: توفي له ابن، فجزع عليه فقيل له. أجر قدمته وفرط افترطته، وذخر أحرزته، فقال: ولد دفنته، وثكل تعجلته، وغيب وعدته فانتظرته والله لئن لم أجزع للنقص، لا أفرح بالزيادة"[3] إنه يعيش بمنطق الحدة، ويعري الأشياء وظواهرها ليصل إلي عظام المعاني بعيدا عن التجميل والتظاهر والتسطيح، لأنه يحمل روحا عاشقة للحياة عنيفة الإحساس بالحرمان منها.

ويصف بشار حاله هذه، وما جلبته عليه من صدام بالحياة، وما أوصلته إليه من نفي لحكمه تنتظم هذه الحياة ومقياس، يسير أمورها، يقول:

---

(١) شخصية بشار ص ٣٨

(٦) شخصية بشار ص ٦٣، ٦٤

(٢) تروي في ذلك حكايات منها أنه "لوحظ عليه مرة أنه لا يصلي، وكان إذا حضرت الصلاة يقوم غيره ويقعد هو، فكلمه بعضهم في ذلك فكان رده. إن الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة" د. محمد زكي العشماوي موقف الشعر. ص ١٣٠- ١٣١

(٣) حديث الأربعاء ص ١٠٠ جـ٢

طبعت علي ما في، غير مخير ... هواي، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطي، وأعطي ولم أرد ... وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي، وعلمي ثاقب ... فأرجع ما أعقبت إلا التعجبا
لعمري، لقد غصت نفسي علي الهوي ... لتأي، فكانت شهوة النفس أغلبا
أمر علي العيش يوم عدمته ... ولا أشتهي ليلي إذا ما تأوبا

إن الشعور بالجبرية يهيمن علي الأبيات السابقة، ويرجع إليه بشار بن برد إحساسه بافتقاد علة الوجود الغائية، وافتقاده لحكمة هذا الوجود هذا الشعور بالجبر - الذي يتعارض لابد مع مبادئ المعتزلة الذين يميل إليهم بشار فيما قيل- هذا الشعور يريح بشار من مؤنة الفعل والنزوع والإرادة، يريحه علي أسطح التمني والـ (ليت) وال (لو) كما يؤدي به إلي هوة مظلمة يائسة وإلي مزيد من الانفصال لا عن الواقع فقط، بل عن الآتي أيضا، هذا التناقض هو ماهيته شاعر، إذ ليس فقط الأديب الوجودي هو الذي "لا يتخذ من الاحداث إلا رمزا وعلامات على الجوهر الباطن في اعماق الوجود كله، فالألم الذي يحياه في لحظة هو ألم مرفوع إلي أس السرمدية والانفصال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدد سرعان ما يفتح علي الوجود بأسره"(١)، وليس الأديب الوجودي وحده المتصف بهذا الوصف، فالشاعر قريب منه كماهية مرهفة الحس تميزه خاصة إذا كان محاطا بواقع يرفضه وبحياه خاصة يتألم منها وبوجود لا ينى يتساءل عن غايته.

المغترب شديد الإحساس بقصر العمر الإنساني ورداءة الزمن المعيش، وتبدل أقنعة الدهر، لذلك فهو أن أوتي طبيعة مقبلة علي اللذات، وجهها إلي النيل من الحياة ثأرا من العمر القصير انه يعيش بمنطق الشعر مخالف بالطبع منطق العقيدة . وهنا يراه المجتمع شرها شهويا ... وهكذا كان بشار بن برد، ففي كتاب "النزهة لحفيد وكيع بن خلف في الورقة ٤، حضر بشار مجلسا فقال: لا تجعلوا مجلسنا هذا شعرا كله ولا غناء كله، ولا حديثا كله، ولكن تناوبوه فإن العيش فرصة"(٢)

---

(١) ديوان بشار بن برد الجزء الأول/ص ٢٤٥، ٢٤٦
(٢) أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية تصدير عام بقلم بيروت، دار للمطبوعات الكويت الطبعة الأولى ١٩٨١م

إنه الإحساس الحاد بالزمن والموت، إحساس تولده المعاناة الشخصية والحرمان من الحياة، وهو أيضا نهم المغترب القلق الخائف من فجاءات الدهر، الشاك في ديمومة الاشياء، العالم- بحق- زوال كل شيء، يقول بشار

لا تذكري ما مضي وشأنك بي ... اليوم فإن الزمان ينقلب
حلوا ومرا، وطعم ثالثة ... في كل وجه من صرفه عجبه

وحين يحيط به حصار الدهر وبيتلع وجوده يذعن له إذعان السجين المائت النبيل، مازجا بين النبل والضعف معا.

ديني لدهر أصم منداك ... يهرب من ريبه ولا هرب
أودي بأهل الغدير فانقرضوا ... لم يبق منهم رأس ولا ذنب
وأرض بما راعك الزمان به ... ما كل يوم يصفو لك الحلب
جربت ما جرب الحكيم فهل ... لاقيت عيشا لم يعره نصب

إنه استسلام التمرد، أو تمرد الاستسلام، إنه السطح الراكد الذي يخدعنا بهدوئه بينما تضطرم جنباته، وهي أيضا ذات الرؤية التي خرج بها من صدامه بالمجتمع: ليس ماء بلا كدر، هي ذات الخلاصة في البيت الأخير "ليس عيش دون نصب، فالحياة مجتمع كبير، والمجتمع حياة صغيرة وحين يتأرجح المغترب بينهما لابد أن يرفع راية ما، وأن يبحث عن عالم ثالث غيرهما ولعله إذن يرضع من الشعر، ويستشرق آفاقه ويرتضي حلوله.

الاغتراب في شعر أبي نواس:

عاش ابن هاني في القرن الثاني الهجري، شهد ما ضمته هذه المرحلة من تحولات سياسية واجتماعية عظيمة، تفتح وعيه علي مكائد الساسة وأصول اللعبة السياسية، وشهد بعينه ما يبذل من قرابين تحت أقدام الخلافة، فكان كل هذا دافعا له ليدور حول مفهوم الانتماء، وحيثيات الحكم، وقضية الولاء، حيث كان "الشاهد علي لعبة التناقض والازدواجية والخيانة، كان العارف بأن بني العباسي أول من سدد الطعنة، وغرس الحراب في صدور من أعانهم،

ونصرهم: شيعة آل البيت"[1].

لكن الحكم العباسي كان يظلل أبا نواس، لذلك عاش الأخير مقسم النفس بين ولاءين: ولاء ظاهري لسياسة بني العباسي، وولاء دفين صادق لشيعة آل البيت ونعتقد أن هذا الانقسام النفسي، وهذه الحياة السياسية المعقدة كانت مدخل أبي نواس إلى عالم الاغتراب.

أسند أبو نواس ظهره إلي حائط التأمل، وعقد ذراعيه علي سخرية لاذعة تولدت من تناقضات الواقع السياسي- الاجتماعي بالطبع- الذي وضع يديه علي أكثر من معني واحتمال للصدق والوفاء والرحمة والعفة راي مقاييس كل هذا تهتز في عينيه وتصبح رهن الحاجة والمصلحة ولعل إدراكه لكل هذا وغيره يدعونا إلي مزيد من النظر في سخريته وما أشيع عن مجونة وعبثه، إذ لا يصح في العقل أن نفصل كل مظاهر استهتار أبي نواس عن طبيعة العصر الذي ضمه وما اضطرم في رحم هذا العصر. فالم أبي نواس من تناقضات الواقع السياسي يصل إلي حد أنه قد سوي في نفسه بين كبائر الأثم، وانتزاع بني العباسي الخلافة من الشيعة، فهو وصل إلي حد الشطط والعبث في أمور العقيدة لأنه فقد توازنه النفسي في المجتمع يقول:

اشـــرب، وعـــق الوالـــدين ولا تخـــافن مـــن آثامـــة
وإذا حجبـــت أحجـــج علـي ظهـر الغـلام أو الغلامـة
فالنـــار فـــي شـــغل بمـــن حجـب الوصـي عـن الإمامـة[2]

إن حدقيته أبتا إلا رؤية العظم والدم، رؤية الحقيقة، وقد أسبغ علي العصر كله بشاعة البداية وقسوة مفتتحه السياسي.

ولم يترك أبو نواس الحاكم- الخليفة الأمين دون ادانة - بل حمله عبء كل ثغرة في المجتمع، فتعرض له بالنقد اللاذع والسخرية المرة مشهرا بشربه الخمر، ومنادمته للخصيان والغلاميات، هو لا ينسي في هذا التشهير أن يناديه بـ (أمير المؤمنين) ليضعنا أمام المفارقة بين هذا اللقب، وسلوك حامله، يقول،

---

(١) د. لحلام الزعيم. أبو نواس بين العبث والا غتراب والتمرد. بيروت دار العودة/ الطبعة الأولى ١٩٨١م. ص ١٢ بتصرف.

(٢) عثرت د. لحلام الزعيم علي هذه الأبيات في محطوطة ديوان أبي نواس ولثبتتها في مؤلفها أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد/ ص ٧١ والديوان المنشور لأبي نواس لا يضم هذه الأبيات.

مبررا تمسكه بالخمر. وواصعا بيده علي عواصل عبثه، واستهتاره وما قد يصل إلي الاستخفاف بروح الدين. يقول

أارفضها، والله لم يرفض اسمها وهدا أمير المؤمنين صديقها[1]

وتبلغ سذاجته مداها حين يغمز إلي عقيدة الأمين، ويشكك في ماهيتها وصحتها، يقول:

احمدوا الله جميعا يا جميع المؤمنينا
ثم قولوا، لا تملوا ربنا أبق الأمينا
صير الخصيان حتى صير التعنين دينا

في هذا المجتمع الذي يجهر فيه الخليفة بمظاهر الخلاعة، وكل ما يتناقض مع أحكام الدين وجوهره، في هذا المجتمع الذي ينتهج كبراؤه سيرة خليفتهم، ويتمثلون الخطيئة ويتباركون بها وكأنها الطريق إلي الجنة، في مثل هذه المجتمع يري أبو نواس نفسه ملوما لأنه يجاهر بحب الخمر ويتغني بأوصافها، في مجتمع لا تهمه الخطيئة في حد ذاتها، بل يهمه سترها وتنظيمها والتوفيق بينها وبين ما يجب إظهاره للملأ، أن قضية هذا المجتمع إذن هي: الأقنعة، يفطن أبو نواس إلي هذا، فيمتلئ ديوانه بكثير من المواضع التي تصور تلك المفارقة، عابثا بكثير من رجال مجتمعه الأفاضل- ظاهريا- ساخرا ببعض الذين نجحوا في الحوز علي الثقة والاحترام، ومن بين هؤلاء الوزير الفضل بن الربيع[2] ويبرر أبو نواس مجونه وعبثه بأنه وليد المتاح أمامه، ونتاج أرض كاملة، يقول:

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي والمجانة ديني
لا العذر يقبل لي، ويفرق شاهدي منهم ولا يرضون حلف يميني

إن الصدق قضية أبي نواس- فيما يخص اغترابه، أما فيما يخص الناحية الأخلاقية فإن هذا الصدق لا يغفر له في حكمنا المجاهرة بالخطيئة، ومن ثم النزوع إليها- فكما كان هذا الصدق قضيته فيما يتصل بالولاء السياسي، كان أيضا محك علاقته بالمجتمع، فهو يعتقد أن المجاهرة بالمعصية أقل في الجريرة

---

(١) ديوان أبي نواس تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي مطبعة مصر ١٩٥٣/ ص ٩
(٢) ديوان أبو نواس تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ص ٤٥٩

من إخفائها والتظاهر بنقيضها، ولما كانت طرائف كثيرة من مجتمعه رهن الاضطراب والفوضي والنفاق تجرأ أبو نواس علي كثير من رجال الدين والفكر والأدب في عصره إذ رأي فيهم هذا التناقض وتلك المفارقة.

وهنا انتبه أبو نواس إلي الخمر راي فيها أصل الاختلاف بينه وبين المجتمع فالمجتمع يعكف على الخمر لكنه يخفي علاقته بها، أما أبو نواس فهو يجاهر بهذه العلاقة ويراها مناسبة جيدة لإعلان تمرده وانفصاله واختلافه، فكان إصراره علي الخمر إصرارا "علي تحقيق الحرية التي تتجسد له من خلال إحلال القانون الفطري محل القانون الوضعي"[1] إذن فهو يحاول أن يتجاوز بالخمر حدود الخطيئة والعبث إلي حدود الموقف والرؤية والتعبير عن الاغتراب، ورفض الزيف الاجتماعي، بان يتخذها وسيلة لتصوير اغترابه:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

فما الغبن إلا أن تراني صاحيا وما الغنم إلا أن يتعتعني السكر

أبو نواس إذن لا يري الخمر خطيئة إذا ما اقترنت بالصدق والمجاهرة !! بل يراها رمزا حيا وعالما بريئا يواجه مجتمعا مزيفا عاصيا يدعي الفضائل، لذلك فهو لا يضن علي الخمر بأن يجلد في سبيلها، وأن يرفض لأجل نداماها أي مجلس في المجتمع، بل لا يتورع عن أن يدين خليفته بشربها خفية والتنصل من تبعاتها، إن المجتمع بأكمله يقف في شعر ابي نواس مقابل عالم الخمر ومجتمعها ونداماها، وأن المقارنة بين المجتمعين في صالح الخمر، فالندامي يدينون بدين الفطرة والصدق والعفوية أما المجتمع فله دين واحد هو دين الأقنعة ولا يطبق النواسي هذا الدين وهو الذي يسعي لاهثا ليبحث في خمره عن الشمس والحقيقة والعراء، أو ما يظنه صدقا وبراءة.

لم تكن هزيمة أبو نواس في حبه لـ "جنان" الجارية، لم تكن الهزيمة الوحيدة التي مني بها في علاقته بـ الآخر، بل امتلأ ديوانه بوصف مشاعر الفقد والوحشة والفشل في العلاقات الاجتماعية، وامتلأ شحبا وحنينا إلي أصرة إنسانية حقيقته ، ويعجز أبو نواس عن إيجاد هذه الأصرة، لأنه يعيش

---

(١) ديوان أبي نواس / ص ٥٩٦.

في مجتمع لا يألف قوانينه وأصوله فالتجانس مجال، ومن ثم فالصلة الحقيقة مستعصية حتى علي الخاطر، وهنا تبزع الخمر مرة أخرى، وتبرز إلي الوجود وتشير إلي أبي نواس بقدرتها علي الاستعاضة وخلق الانتناس فإذا كان النواسي قد جهر يانسا.

فسد الخلائق كلهم فانظر لنفسك من تؤاخي[1]

إذا كان قد جهر بهذا، فقد مثلت له الخمر العالم المقاوم للاغتراب لذلك يصورها في صورة الام :

كذلك إذا رزئت أخا فليس بيني وبينه نسب
قطر بل مربعي، ولي بقري الكرح نصيب وأمي العنب
ترضعني درها، وتلحفني بظلها والهجير يلتهب[2]

ويصفها بما افتقده في المجتمع: الوفاء، الصدق، الإنسانية، الدفء، فهي تكفيه مجتمعا قائما بذاته يغنيه حتى عن الندماء[3] الذين إذا استشعروا للخمر لذة واحدة مباشرة هي السكر والغياب، [4] فإن لأبي نواس لذتين معها، إحداهما لذة الأعماق والتعويض، لذا يتمسك بها لأنها المصدر الوحيد الأمثل للإشباع[5].

إن صورة أبي نواس في شعره صورة رجل لا يترك زقه أبدا، ولا يني عن التأرجح يمينا ويسارا مهددا بالخمر، لاعنا لأجلها كل الأشياء متهما كل من لا يقربها، لا العكس- وهي صورة تتعارض مع صورته الأخري التي نراه فيها ذا رؤية خاصة في الدين- أو علي الأصح- ذا اهتمام خاص به، يدفعه إلي أن يحاول فلسفة أدلة العفو عن المؤمن، كما يدفعه هذا الاهتمام إلي أن يحتد في نقاشه مع الحسن البصري حول أدلة العفو هذه وحول حدود الكبائر في الإسلام، إن الصورتين متعارضتان في الظاهر تماما، ولكن نظرة إلي طبيعة العصر الذي عاش فيه أبو نواس لا تجعلنا ننكر هذا الاضطراب، هذا العماء، أو هذه

---

(١) ديوان أبو نواس/ص ٥٥٩.
(٢) المصدر السابق ص ٤
(٣) السابق/ص ١٨٠.
(٤) السابقة/ص ١٧٩
(٥) السابق/ص ١٧٩.

الحيرة، والتردد في تحديد حدود المعاني والقـ لأشياء، هذا العصر لا ينكر رجل الفكر الذي يدلي بدلوه في الفقه وعلوم الاو والفلك والشعر، وفي ذات الوقت يستطيع أن يملأ صحاف الجواري والقيان بالفضة والذهب والهدايا، وأن يسابق أعظم سكير في شرب الخمر، عصر أبي نواس- وكل مرحلة تنتمي إلي الحكم العباسي- لا تنكر هذه الصورة: صورة الإنسان الذي يأخذ من كل شئ بطرف، لذلك نعتقد أن استهتار أبي نواس "لم يكن عن كفر، بقدر ما كان عن ولع بما لا يملك له دفعا، والدليل علي ذلك سببه إ فران وجدله مع الفقهاء في شأنه"[1]إن العربي في هذه المرحلة غاية في الانفصال، تتجاذبه كل الأشياء وكل الحيوات وكل الشهوات، وكل الحواجز معا، وهو يدفع كل هذا تارة، ويستسلم كثيرا له ولعل "إغراء المعرفة" من أكثر عوامل الجذب لإنسان العصر العباسي وأكثرها قدرة علي صياغته، فقد تعددت عوامل المعرفة وطرائقها، وهي جبارة في ما تعد به من عوالم فياضة رحبة جديدة، وقد اختار النواسي الخمر طريقا لا للإنتكاس فقط، بل للاغتراب، والتميز، والمعرفة الحقيقية التي تمكنه من منهجه الإنساني، وتقنين المجتمع وتحديد، وفهمه بل وتحديد هويته الشخصية، وإعلان القدرة علي الاختيار، وتنظيم النفس، لذلك نعتقد أن الخمر لم تكن فقط قضية أخلاقية في حياة النواسي، بل هي قضية من قضايا المعرفة والرغبة في المواجهة والتعبير، الخمر تصور الاغتراب الاجتماعي لأبي نواس، وتعبر عن حلمه بالانتماء.

إن رفض الواقع ومن ثم الانفصال عنه خطوة واسعة تأخذ المغترب من الأرض إلي الآفاق، والتساؤل الدائم عن أسرار السماء ربما للبحث عن حكمة الوجود، ربما محاولة لاستكناه المصير، أو السعي وراء الدفء الذي استعصي وجوده في الواقع، أو الانتماء إلي عالم آخر لا يضج بالقبح والخلل: الاغتراب الاجتماعي والبحث عن الحقيقة الميتافيزيقية، وحوادث في وجود واحد، وفي شعر أبي نواس تساؤل عن مفردات العالم الماوراني، ومعاناة لبعض الحقائق التي آثر الله حجبها عن الإنسان.. علما بطبيعته وطرق معاملته وقدرته علي الاحتمال ، رحمة به لا استخفافا.

والزمن لحد أهم هذه القضايا الميتافيزيقية في شعر أبي نواس يتتبعه في

---

(١) موقف الشعر من الفكر والفن في الحياة العباسية/ ص ٢٠٤، ٢٠٥.

كل اشكاله ظنا منه أن الزمن أيضا يلاحقه، وظنا منه أنه حين يراقبه يميته أو ينال من قوته، وذهاب الشباب هم يلاحق كل إنسان، لكنه يتخذ عند المغترب دليلا علي العبث أو المحدودية والضعف، دليلا علي القيد، يقول أبو نواس:

فالآن صرت إلي مقاربة وحططت عن ظهر الصبي رحلي[1]

وحين يمدح الخليفة الأمين يمدحه في معني معقد، أو ينسب إليه صفة مركبة، هي القدرة علي الإفناء، أي القدرة علي الإيجاد والديمومة، فهو يخلع عليه صفة الزمان أو الدهر، ويتجه إليه بمشاعر هي خليط من البغض والإكبار والرهبة والتطامن، يقول:

يـــا أمـــين الله عـــش أبـــدا فـــإن أنـــت أمنيتنـــا فكـــن[2]

فإذا كان أبو نواس قد مزج الموت بالحياة في هذا البيت، وجعل من فناء المجموع قربانا لوجود الفرد- علي المستوي الاجتماعي، فهو ايضا يحمل رؤية ميتافيزيقية تري العدم والوجود ممتزجين مختلطين معا في كيان واحد.

وأبو نواس يجسد معاناته من اختلاط الموت بالحياة حين يصور في شعره الصراع الرائع بين الطلل والخمر.

والطلل في شعر أبي نواس يثير به أكثر من قضية فالنواسي يواجه به المجتمع أو يدين به المجتمع ،ذلك المجتمع الذي يرتكن إلي الموروث، وإلي طرائق ناقصة للمعرفة، فالإصرار الاجتماعي علي الطلل إصرار علي موروث لا يمت إلي الحياة الحاضرة بصلة، أي هو إصرار علي الجهل والركود، والانتماء المزيف إلي حيوات لم تمارس بالكيان الشخصي، علي النقيض من الخمر- كما يري النواسي- التي هي ممارسة حاضرة، ومعرفة ملموسة:

فعـــلام تـــذهل عـــن مشعـــشعة وتهـــيم فـــي طلـــل وفـــي رســـم
تصف الطلول علي السماع بها أفـــذو العيـــان كأنـــت فـــي العلـــم

---

(١) ديوان أبي نواس/ص ٤١٣.
(٢) ديوان أبي نواس/ص ٤١٣.

وإذا وصـــفت الـــشئ متبعـــا لـ ـل من زلل ومن وهم[1]

إن رفض الطلل في شعر أبي نواس رفض للمعرفة المزيفة، إصرار علي حرية التواجد، وهذا الموقف من الطلل كموروث اجتماعي يختلف عن موقف أبي نواس من الطلل كقضية ميتافيزيقية أو كمعادل فني لتناهي الإنسان واندثاره وتحلله، بما يجعل أبا نواس لا يعرض عن بكاء الإطلال، بل أن جزءا كبيرا من شعره يعتني بهذه التجربة.

ويمتزج الطلل مع الخمريات في شعر أبي نواس لان الطلل في تجربته الشعرية ليس تقليدا بل هو تصوير لفزعه من الفناء والمحدودية، فهو رمز يبرز صراع الشاعر مع قوي الزمان والموت، فالطلل هنا رمز لموت الإنسان، أما حلم الشاعر بالحياة والخلود، فهو يتجسد في الخمر التي تستطيع أن تبقي عمرا كاملا في دنها دون موت، بل هي تزداد جمالا كلما عتقت علي النقيض من الإنسان الذي يشيخ بمرور الزمن فالشاعر إذن يستعير قوي خارجية لمواجهة الفناء، هي قوى الخمر، ويري في الخمر قوة التعويض عن النقص يقول:

والكـــاس أهواهـــا وأن رزئـــت بلـــغ المعـــاش وقلـــت فـــضلي
ذخـــــرت لآدم قبـــــل خلقتـــــه فتقدمتـــــه بخطـــــوة القبـــــل[2]

الطلل هو الرسم (المحيل) هو الاندثار والأثافي والدمن التي تبدو كشواهد القبور تحوطها رياح تعزف لحن الموت، أما الخمر عند أبي نواس، فهي تلك الحسناء (المشعشعة) التي تحوطها القيان والأوتار والبهجة الطلل فناء والخمر حياة، فإذا أصر المجتمع علي اتباع الطلل فهو يصر علي رؤية تخالف رؤية أبي نواس، ويصبح الصراع أعمق معني من الشعوبية والعروبة وغير ذلك، يصبح موقفا متكاملا من الحياة:

عاج الشقي علي رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد[3]

والخمر لأنها حياة يشبهها أبو نواس دائما بالشمس والنجوم والنور[4] والحياة والحقيقة والمعرفة، الخمر سعي إلي الحياة، لكنه ليس سعيا مطمئنا بل

---

(١) المصدر السابق/ص ٥٨.
(٢) الديوان/ص ٤٢.
(٣) المصدر السابق/ص ٤٦
(٤) السابق/ص ١٨٧.

سعي يشوبه القلق والخوف والترقب للهزيمة، فأبو نواس يبادر لذاته مبادرة الدهر لها أي ينتهبها، خلسة وفجأة، وعنوة، وكأنه طرفة بن العبد الذي يفنى الموت بالموت ويفني الموت بالحياة.

رأيت الليالي مرصدات لمدتي فبادرت لذاتي مبادرة للدهر[1]

فهل يمتزج حب الحياة في نفس أبي نواس بتعجل الموت هربا من انتظاره، لا نستبعد هذا، إذ "ليس بين المقبل على الحياة والخائف من الموت فروق كثيرة"[2] بل أن عميد الأدب العربي بعد أن وصف أبي نواس بالهزل والمجون[3] عاد فقرنه بأبي العلاء في التشاؤم وكراهية الحياة، وأن كان كل منهما- في رأيه- يكرهها بطريقته، أبو العلاء بالإعراض عنها، وأبو نواس بالنهل منها[4].

وكراهة الحياة لا تتفق مع طبيعة نفس أبي نواس إلا أن رأي عميد الأدب يؤكد أن معاناة أبي نواس من الوجود معاناة واضحة، وأن مجونة ونزقه لم يقفا عند حد المجون والنزق بل كانا تخبطا عقليا.

ورؤية أبي نواس للوجود الإنساني رؤية عدمية على الرغم من هذا الضجيج وافتعال الحيوية الدائمة التي ترفض الموت- في الطلل- وتأنس بالحياة- الخمر- وهذه الرؤية العدمية تدفعه لأن ينتصر للطلل على الخمر في صراعهما معا، فمواضع الطلل في شعره- كما سبق وقلنا- هي في الغالب الخمريات وعلى وجه الدقة خاتمة الخمريات فكأنه يستسلم لهيمنة الموت على الحياة وكأن رفضه للموت رفض متخاذل يحمل روحا يائسة في الحقيقة.

والأبيات الطللية التي يختم بها أبو نواس خمرياته هي في الغالب أيضا تضمين من شعر آخرين وأشعار ذي الرمة تقف على قمة الأشعار التي يضمنها أبو نواس خمرياته، وكأنه يجسد معاناته للضياع والتمزق ويؤكد أن صخب الخمر لم ينسه أبدا خاتمته الحقيقية: الموت، وفي إحدى خمرياته يصف أبو نواس طقوس الخمر ونداماها وينتقي منهم من يشدو للطلل، يقول:

---

(١) الديوان/ ص ١٣٩.
(٢) د. مصطفى نصف. دراسة الأدب العرب. دار الأندلس بيروت/ ط٣/ ١٩٨٣م ص ٢٥٨، ٢٥٩.
(٣) حديث الأربعاء/ جـ١/ ص ١١١، ١٣٧، ١٣٨.
(٤) حديث الأربعاء/ جـ١ ص ١١، ١٣٧، ١٣٨.

وغني لنا صوت بلحن مرجع أسري البرق غربيا فحن غريب

لا يكاد ينفصل الغناء والخمر والندمان عن الطلل في شعر ابن هانئ[1] بل يتلازمون في تصوير تناقضات الحياة وتصوير تلك الحدود الغائمة الوهمية بين الحياة والموت.

وتبدأ بعض مدائح أبي نواس بالطلل بما قد يبدو اتباعا للتقليد الشعري ، لكن سرعان ما يتبين النقيض حين نجد أبا نواس في كثير من هذه المدائح المبدوءة بالطلل يعرج على خمره معلنا إيثارها والإصرار عليها[2]، وكأنه يضع الخمر والطلل قبالة الممدوح، مؤثرا الصدق والانتماء لما يحب

وفي شعر أبي نواس طلل جديد مبتكر هو طلل الخمر، طلل الحانات والندامي، فكثيرا، ما يصف أبو نواس مروره بحانة متهدمة تبرز منها نتوءات خربه هرمة، ويصف ما كان فيها من حياة اندثرت و (أمحلت) وهذا النوع من الأطلال في شعر أبي نواس يؤكد أن الخمر والطلل لم يكونا فقط تعبيرا عن مرحلتين متناقضتين وفنيا، أو عن حقيقتين متصارعتين، بل هما صراع بين المعني الكلي للوجود والمعني الحقيقي للموت، أن طلل الخمر، هو نعي العيش الحر[3] نعي للبهجة والمرح والوجود الصافي.

وموقف أبي نواس من الموت لا يتضح بشكل كاف في رثائه للآخرين، حتى في رثائه لاستاذه "والبة بن الحباب" بل يكاد يبدو تقريبا مستمدا من التداعي التقليدي لمعاني الرثاء، مما شجع د. طه حسين علي أن ينفي عن أبي نواس قوة الرثاء أو قوة الإحساس بالرثاء لأنه ذو طبيعة مبهجة[4]- رغم أنه وصفه بالتشاؤم وكراهية الحياة قبل ذلك وشبهه بأبي العلاء المعري- لكن الباحث عن الرثاء الحقيقي في شعر أبي نواس لن يجده إلا في تلك المواضع التي يرثي فيها نفسه مراقبا موتها خطوة خطوة، كما راقب من قبل مشيبها.

دب في الفناء سفلا وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا[5]

---

(١) للديوان/ص ١١١.
(٢) للديوان/ص ٦٥.
(٣) للديوان/ص ٤٠٢.
(٤)
(٥)

ويفرد كثيرا من قصائده لشكوى الدهر وتصاريفه، إحدي هذه القصائد تبلغ ثمانية وثمانين بيتا يسوقه فيها التأمل إلي اليأس من معني الوجود الإنساني، لأنه وجود ذو مصير فاجع، يقول:

أري كل حي هالكا وأبن هالك وذا نسب في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار أنك ظاعن إلي منزل نائي المحل سحيق[1]

إن الظعن يردفه الخراب والوحشة، وأن الظاعن يترك وراءه ديارا لا تلبث أن تصبح طللا، وبذلك تبدو رؤية أبي نواس متجانسة مكتملة ويبدو اغترابه الاجتماعي لصيقا باغترابه عن الوجود، ومثلما هرع إلي الخمر خالقا منها مجتمعه وآلافه، هرع إليها هنا أيضا فزعا من أوضاع الوجود طالبا منها المعرفة، متعديا بها حدود الشهوة الحسية إلي مصاف المعرفة والرمز:

هاتا بمثل الراح معرفة بلطافة التأليف والود[2]

ومادامت الخمر معرفة فهي لا تسقي بالفم، بل بالعقل، هي خمر غير خمر الناس جميعا لذلك ينفي عنها الخطيئة فكينونتها فريدة:

فأتاك شئ لا تلامسه ألا بحس غريزة العقل[3]

وما دامت الخمر قادرة علي إشباعه وإيناسه ، فهي تستطيع أن تذود عنه الفناء وأفعال القبر، لذا يصبحها عند موته ظانا بها القدرة علي إذابة الوحشة والتهوين من الرحيل ومقاومة الاغتراب، يقول أبو نواس:

فيا أيها اللاحي اسقني ثم غنني فإني إلي وقت الممات شقيقهـــا
إذا مت فادفني إلي جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها

الاغتراب في شعر بن الرومي:

ويا أيها المرعي للذي اهتز نبته وبكر فيه خصبه وتروحا
عذرتك لو كانت سماء تقشعت سحائبها أو كان روضا تصوحا

---

(١) السابق/ص ٣٩.
(٢) السابق/ص ٤٣.
(٣) السابق/ص ٩.

ولكنها سقيا حرمت رويها وعارضها ملق كلاكل جنحا[1]

لم تخرج حياة ابن الرومي عن معني هذه الأبيات علي امتداد عمره من عام ٢٢١هـ إلي عام ٢٨٣هـ، فابن الرومي لم يستقبل الحياة بخمس حواس بل بمائة حاسة، أو بظماً مائة حاسة، فهو يستشعر الزهرة الوضاءة والوجه الحسن والفاكهة اليانعة والطعام الشهي والغادة الجميلة، نهم لا حد له تعذر علي الإشباع ليس فقط لغلوه، بل لوجود ابن الرومي في مجتمع مضطرب يحتكم إلي الصدفة والحظ لا إلي العمل والكفاءة، وكان هذا المجتمع أحد عوامل حرمان ابن الرومي الذي ما انفك يعاني منه، ويشكوه حتى كاد هذا الحرمان يكون المعني الغالب علي شعره[2].

وكان شعر ابن الرومي- أو كانت طبيعة شعره- عاملا من عوامل إعراض الممدوحين عنه- كما سنبين بعد قليل- لذلك نري في شعره الممدوح البخيل الذي لا نعتقد أن صورته توجد في غير هذا الشعر فابن الرومي يشكو شح ممدوحيه ويراهم صورة من دهره البخيل العنيد، ويسخر ابن الرومي من حاله، حين يري أن طريقه الوحيد لبلوغ ما يأمل هو مخالفة القياس بأن يمدح البخيل كذبا عله يجود يقول:

مديحي عصا موسي وذلك أنني ضربت به بحر الندي فتضحضحا

سأمدح بعض الباخلين لعله إن اطرد المقياس أن يتسمحا[3]

فالحرمان قضية ابن الرومي الرئيسية في الحياة، وقد وضحت في شعره[4] واستدعت معاني أخري لا تخرج عن دائرتها، فقد تتبع أحد الدارسين[5] شكوى الدهر في شعر ابن الرومي فوجدها فيما يزيد عن خمسين مقطوعة وقصيدة في هذا الشعر فضلا عن المتناثر من الأبيات وهذا المعني وحده- شكوي الدهر- يكفي وجوده بهذا الشكل لصبغ الديوان باللون الداكن.

---

(١) ديوان ابن الرومي. تحقيق د./حسين نصار. الهيئة المصرية العامة للكتاب مركز تحقيق التراث مطبعة دار الكتب الجزء الثاني ١٩٧٤م/ص ٥١٩.

(٢) المصدر السابق/ ج ٢/ص ٥١٩.

(٣) المصدر السابق/ ج٢/ص ٥٢٠.

(٤) ديوان ابن الرومي. ص ١٣٧، الجزء الأول.

(٥) د. علي شلق/ ابن الرومي في الصورة والوجود/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ٢٢.

وانعدام السياس في المجتمع يعني أن هذا المجتمع متخبط هزيل مهدد بكل خطر، كما أن مثل هذا المجتمع يفرض على أفراده اللجوء إلى مسارب غير شرعية للحياة والتنعم بحقوقهم فيها هذه المسارب غير الشرعية قد لا تكون السرقة أو القتل أو الاحتيال والغش و ... و ... قد تكون اللجوء إلى العزلة الداخلية إلى (الذات) بكل وطاويطها وعناكبها وغموضها واهتزازها، فهي ذات محبطة لن تعطي لصاحبها- الذي لجأ إليها مجبرا مفلسا- إلا الخواء والضياع، وقد كمن ابن الرومي في ذاته وانطوى في عالمها، واستسلم لهواجسها يستشف منها نبوءة ما وأطلق على هذا الاستشفاف المريض تفاؤلا وتشاؤما، فغلبت عليه صفة التطير و (الوسوسة القهرية)، وصار أضحوكة زمنه ومعاصريه، واستغل المتاجرون بعذاب الغير تطيره، وراقت لهم هذه التسلية، وأشفق البعض الآخر من مصاحبته الكئيبة فهجره، وأنف العقلاء من عالمه القلق فتركوه، وأعرض عنه اصحاب النفوذ والمال الذين يبغون من الشعراء المسامرة والصحبة الطيبة، وتراكم هذا كله في نفس ابن الرومي وزاده انفصاله عمن حوله استغراقا في العزلة والوحشة، وإيمانا بقانون داخلي مشبع بالحرمان انفصالا كانت الطيرة والتفاؤل قانون استشراف الغيب "لأنه فقد كل أمل في الإصلاح السياسي والاجتماعي، وخاب ظنه في كل شئ"[1].

ويترجم ابن الرومي لنفسا ترجمة صادقة عظيمة الدقة، في إحدى قصائده وهي قصيدة يمدح فيها "أحمد بن ثوابة" حيث يترك قليلا مجال المدح ممتكنها مفاوز النفسية، ونعتقد أن هذه القصيدة من اكثر قصائد ابن الرومي دقة في وصف عالمه الداخلي المشبع بالاغتراب يقول:

تنازعني رغب ورهب كلاهما ... قوى، وأعياني اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة في رغبة ... وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها ... واستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ... ومن أين والغايات بعد المذاهب

هذان إذن هما شقا الرحى اللذان يتنازعان ابن الرومي بينهما: الرغبة العنيفة في الحياة والخوف منها، أي التطلع المهدد بالإعاقة، فضلا عن العجز

---

(١) عبد الحميد محمد جيدة. النهجاء عند ابن الرومي. ماجستير آداب/ جامعة الإسكندرية ١٩٧٣م/ ص ٤٥

الإنساني العام عن معرفة المصير.

ويستطرد ابن الرومي في ذات الأبيات إلي وصف منزله ووصف معيشته فنراه دون أن يدري يصف حياته مجملةوصفا رمزيا بالاسقاط ، فهو يتشوف إلي الغيث الذي يمنعه الدهر عنه في حال الظمأ، وهو أن أعطاه لم يعطه للسقيا، بل ليوحل الغيث طريقه فيزل ويدمي:

سقي الأرض من أجلي، فأضحت مزلة تمايل صاحبها تمايل شارب[1]

أما بيته، فهو رمز ذكي لهذه الحياة المتعثرة، لذا يصوره متهدما ذا سقف مرث لا يأمن معه علي روحه.

يـؤرقني سـقف كـأني تحتـه من الوكف تحت المدخنات الهواضب

والبر شبيه بهذه الحياة الخالية من المنطق، أو هو صورة منها، لأنه ليس للأمان والوصول، بل للخوف والتعثير والإعاقة، يصفة بقوله:

يجف إذا ما أصبح الريق عاصبا ويغدق لي والريق ليس بعاصب[2]

والبحر يبدو وكأنه الموت المحتم لابن الرومي، لأن حظه يبدو له عاثرا لدرجة اليقين من الغرق قبل الحجر والصخر:

ولم لا ولو القيت فيه وصخرة لوفيت منه للقعر أول راسب

إن ابن الرومي جمع الأرض والسماء من خلال وصفه لبيته وطريقه والبر والبحر معا وأن محصلة وصفه لكل هذا أنه يعيش علي هامش الحياة، لذلك هو يرفضها، يرفض وسجونها وهزأها منه.

وكما كانت شخصية ابن الرومي من عوامل أعراض الكثيرين عنه، كان شعره أيضا عاملا رئيسيا من هذه العوامل، فروح هذا الشعر تكاد تكون غريبة علي عصره، روح تحتفي بالمنطق والدقة والاستقصاء، والاستطراد والإلمام بجوانب الموضوع بما يجعل من القصيدة أشبه ما تكون بالنثر في خصائصه وطريقته حتى اشتهرت قصائده بالطول المسرف الباعث علي الملل

---

(١) الديوان/ الجزء الأول /ص ٢١٤.
(٢) الديوان/ الجزء الأول /ص ٢١٤.

والرثاية لدي كثير من معاصريه، كما أن هذه القصائد لم تحتف كثيرا بما يهيج الممدوحين من موضوعات ومن صياغة فنية، غلبت الروح العامة عند ابن الرومي روح القنوط والشكوي واليأس على شعره ، فلم يسعد ابن الرومي بشعره، ولم يتح له هذا الشعر الخلاص من حياته المرهقة، بل كان هذا الشعر غير المستساغ من معاصريه من عوامل غصته وإحساسه بالظلم واليأس والإغراق في العزلة، يقول:

نظرة في وجوه شعري وجوه ... أوسعت قبل خلقها تقبيحا
فغدت وهي زاريات عليه ... والذي أنكرته منها اتيحا[1]

ويضيق علي ابن الرومي مجال التكسب بالشعر وتزداد حياته شظفا إلي حد أن يمدح أحدهم- وهو أبو جعفر بن اسحاق النوبختي- من أجل الكساء[2] وكذا يفعل مع محمد بن علي النويختي[3] وتسوء العلاقة بينه وبين الممدوحين فيراهم رمزا لمجتمعه الظالم، ودليلا علي وجوده في زمن كئيب مختل، فكأنه يذم المجتمع كله حين يذمهم:

يا مادح القوم اللئام ... وطالبا نيل الشحاح
ما أنت في زمن المديح ... ولا الهجاء ولا السماح[4]

وإن نفيه لقيمة المديح والهجاء والسماح نفي لكل صلة إنسانية وتشوف للعزلة وحين يوقع البعض بينه وبين الممدوحين فتسوء علاقته بالقاسم بن عبيد الله وأبي جعفر الوراق[5] لينقلب مديحه إلي هجاء، بل هو يفحش في هجاء الأخير وكذا في هجاء خالد القحطبي.

وعلاقته لا تسوء بممدوحيه فقط، بل بكثير من الناس نستدل علي ذلك من كثرة الشعر الذي قاله في العتاب، حتى إنه وجه إلي أبي القاسم التوزي الشطرنجي قصيدة من مائة وستة وأربعين بيتا في هذا المعني[6] وقال فيه

---

(١) ديوان ابن الرومي/ الجزء الأول/ص ٢١٥.
(٢) المصدر السابق/ الجزء الأول/ص ٢١٦.
(٣) ديوان ابن الرومي/ الجزء الثاني/ص ٥١٣.
(٤) المصدر السابق/ الجزء الأول/ص ١٥٣
(٥) المصدر السابق/ الجزء الأول/ص ١٥٩
(٦) الديوان/ الجزء الثاني/ص ٥١٥.

قصيدة أخري من مائة واثنين وخمسين بيتا أيضا في المعاتبة[1].

ولا يري ابن الرومي فيمن حوله إلا متصديا له بالأذي والسخرية والايقاع بينه وبين من يمدح كيدا وحسدا ورغبة في الاستحواذ علي ما حاز ، وإمعانا في هوانه، يصف هؤلاء بقوله:

صادفوا نكبتي فكانت لديهم ... للقلوب المراض منهم شفاء
سعر الله في الجوانح منهم ... سعرة النار، تلكم البغضاء

وهو لا يستثنى من ذلك الأصدقاء، بل أن هؤلاء أول ما يخشاه ،ويظن به الأذى، فالأصدقاء في اعتقاده دروع للأعداء[2] لذلك يتجنبهم حتى لا يوجه إليهم عتابه، لأن عتابه لهم إجهاد لنفسه وقلمه دون طائل[3] ولأنه لا يعاتب إلا الصفوة من الناس[4] وقد افتقد هذه الصفوة[5] ووجد الناس خلافا لما كان يظن.

ويصور ابن الرومي علاقته الشائكة بالمجتمع، فنراها ذات العلاقة بينه وبين الحياة ، علاقة الرعب والرهب، أو الرغبة المعوقة، يقول:

منع ومنح وإصغار وتكرمة ... وشد عقد، وطورا نقض مشدود
فأنما أنا في لبس ونبذبة ... وخوف جان يمرّ البقم مرصود[6]

هذه العلاقة المضطربة تحدوه إلي أن يدعو إلي مجانبة الناس[7] واعتزالهم، ويحتج لهجائه فيهم بأنه لم يبصر منهم من يدفعه إلى ترك الهجاء ويقول:

قيل لي: لم ذممت إلبرايا ... وهجوت الأنام هجوا قبيحا
قلت: هب أنني كذبت عليهم ... فاروني من يستحق المديحا[8]

---

(١) الديوان/ الجزء الثاني/ ٥١٣.
(٢) الديوان/ الجزء الأول/ ٨٦ ، ٨٧.
(٣) الديوان/ جـ٢/ ص ٨٠٩.
(٤) الديوان/ جـ٢/ ص ٧٧٠.
(٥) الديوان/ جـ١/ ص ٢٣١
(٦) الديوان/ جـ١، ص ٢٣١
(٧) الديوان/ جـ٢، ٦١٣.
(٨) الديوان/ الجزء الأول /ص ٧٢، ٧٣.

رسم ابن الرومي صورة دقيقة لعلاقته بمجتمعه، رأينا فيها هذا المجتمع المتفكك المضطرب يقف عائقا كبيرا بين الشاعر وأمانيه، بل هو يمثل له الضرورة والتسليل مما جعله يتحول كائنا ذا بنيان نفسي هش يستعيض عن العتل بقوانين الطيرة والفأل وما يشبه عيافة الطير، رغم وجوده في عصر لم يزدهر فيه شئ قدر العلوم العقلية التي بلغ تأثيرها إلي حد أن غلبت علي شعره وجعلته أشبه بالمناظرات.

ولا نتفق مع د. علي شلق من أن التكوين النفسي الخاص بابن الرومي كان عامل فشل علاقته مع المجتمع[1]، إذا لا يصح في العقل أن يتكون الإنسان نفسيا وعقليا قبل أن يعرك الحياة ويصطرع مع البيئة فمن أين لابن الرومي مثل هذا التكوين؟ إننا نزعم أن العكس هو الصحيح أي أن المجتمع بادر ابن الرومي بالعداوة مما شكل تكوينه النفس الذي زاد في هذه الغداوة وهكذا دارت الدائرة.

ومعني آخر من معاني الاغتراب نراه في شعر ابن الرومي- ونراه في شعر أبي تمام وابي العلاء والمتنبي أيضا ولا نعتقد أن شاعرا مغتربا لم يستخلصه من الحياة- هذا المعني، هو اغتراب التفوق أو الثقة بإمكانات الذات، وما أسمته مدارس علم النفس بـ(النواقص المعرفية) فالمغترب يستشعر رغم ضياعه وانسحاقه، وحرمانه مما يستحق أنه يعتلي قمة هؤلاء الناس الذين يمثلون وجها متشابها واحدا وصوتا واحدا مهما تباينوا في الظاهر، والذين لا يؤثرون كثيرا في الوجود إذا غابوا، هكذا ينظر ابن الرومي لنفسه فيراها يسة ثقيلة الوزن وهي لثقلها تفرق أما من حولها فأنهم لهشاشتهم طافون فوق السطح إنه يصور تفته بذاته، ويصور شكه في قدرة الحياة علي التمييز والتقدير والاثابة، القدرة علي التحكم وصياغة المنهج؟ يقول:

لا أعد العلو منهم علوا ... بل طغوا، يمين غير كذاب
جيف انتنت فاضحت علي ... اللجة والدر تحتها في الحجاب
ورجال تقلبوا بزمان ... أنافيه وفيهم ذو اغتراب[2]

اغتراب ابن الرومي إذن- وكما وصفه في هذا البيت الأخير- اغتراب

---

(١) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٥٦٩.
(٢) الديوان/ الجزء الأول / ص ٢٨٠

في المجتمع وفي الزمان معا، أو اغتراب عنهما معا ولعل ما يجمع الاغترابين عنده، ما أسماه د. علي شلق بـ(قضية الفوات)[1] أو الحرمان.

ويستهل ابن الرومي مدحته في عبيد الله بن طاهر، يستهلها ببكاء الشباب مستغرقا أحد عشر بيتا يحصي فيها آلام الشيب، محاولا الوصول إلي فلسفة للحياة، وقد ارتضى فلسفة العدم أو تقبل العدم تفسيرا للوجود، يقول:

فمالت صروف الدهر تنسخ جدتي وما أمليت من قبل إلا لتنسخا[2]

وفي مدحته لصاعدين بن مخلد يصف الشيب بأنه رحيل إلي الموت أو طريق إليه[3]

ومن شأن من كان بمثل إقبال ابن الرومي علي الحياة- من شأنه بكاء الحياة والإحساس بفقدها، بل من المنطقي له أن يصف المشيب كما وصفه ابن الرومي بأنه كارثة الإنسان الأساسية في الحياة باعتباره باب النهاية[4].

وقد وقف ابن الرومي وقفة خاصة مميزة عند موت أوسط أبنائه، ورثاه رثاء مفجعا، وكأنه رأي في موت(أوسط الصبية) معني من معاني عبث الحياة، أو دليلا علي هذا العبث، فقد ابنا لم يك صغيرا مغمور الملامح ، كما لم يك كبيرا قد حقق حلم والديه فذاقوا من ثماره، كان الأوسط أو الـ(بين بين) وهي ذات المنطقة التي تعطلت فيها قوى ابن الرومي، وتصدت له الحياة بالاعاقة إذ أعطته حبها والرغبة فيها ثم أغدقت عليه من الحرمان، فلا هو مشبع، ولا هو عاطل من الرغبة، يقول ابن الرومي راثيا ولده مقتربا من هذا المعني:

توخي حمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف أختار واسطة العقد
علي حين شمت الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد[5]

ويبث ابن الرومي في ذات القصيدة إحساسه بامتزاج العدم والوجود في أناء واحد، حيث يكرر قوله (كأني ما) في كثير من الأبيات التي يصف فيها

---

(١) ابن الرومي في الصورة والوجود/ص ١٠٢، ١٠٣.
(٢) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٥٧٤.
(٣) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٥٨٥.
(٤) الديوان/ الجزء الأول/ ص ٢١٧.
(٥) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٦٢٤.

تاريخه مع ذلك الصبي، وكأنه يتشكك في حدوث الفقد، وكأنه يعاني اختلاط الماضي بالحاضر ، أو كأنه يعاني الذهول من عجزه عن استعاد الماضي ، وهو يبث هذا المعني في قصيدة أخرى مما يؤكد شعوره بالعبث، يقول:

ولا تحسبن الرزء لم يك واقعا ولا تعتقده طارفا فهو تالد[1]

والعبث يجعل الوجود الإنساني بلا معني في عين ابن الرومي، فهذا الوجود يمر عنده بدورة مضحكة غير مجدية: نمو، نضج، حصاد، ويتساءل في حنق عن مغزى هذه الدورة، ومدى إمكانية الحرية الإنسانية فيها:

أفلا سبيل إلي تبحبحنا في سرمد لا ينقضي أبده
سكنى شباب لا يعاقبه هرم وعيش دائم رغده
لا خير في عيش تخوننا أوقاته وتغولنا مدده
يعطي الفتي الأيام ينفقها وقصاصها أن يقترى جلده
من أقرض الأوقات أتلفها وقضي جميع قروضها جسده
حتى يغيب في مطمطمة لا أهله فيها ولا ولده[2]

وفي رؤية ابن الرومي نحن ركب يحدونا الحداء إلي الموت[3] في حتمية تؤلم ابن الرومي وتسيطر علي رؤية كل شاعر مغترب مثله.

والموت أحد طرق الحفاظ على الحياة وأحد طرق العزلة والأمعان في الانفصال، هكذا يري ابن الرومي في محاولة لحل معضلة الوجود الإنساني المرهق، يري- أن انفصال الإنسان عن الحياة، وانفلاته من متاعها يحميه من خطر الفقد والاستلاب والحزن:

من سره ألا يري ما يسووءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا[4]

أما الطريق الآخر لوقاية الإنسان، فهو اليأس المطلق من الحياة لأن التهديد بالفقد ينغص علي الإنسان طيب العيش[5]، فاليأس نجاة :

---

(١) الديوان/ الجزء الثاني/ص ٨٠٠
(٢) الديوان/ الجزء الثاني/ص ٦٦١
(٣) الديوان/ الجزء الأول/ص ١١٩
(٤) الديوان/ الجزء الثاني/ص ٨٠٠
(٥) الديوان/ الجزء الثاني/ص٦١٢

لكن في اليأس لي عفوا وعافية واليأس رفد لعاف غير مرفود[1]

والاغتراب عن الحياة هو العيش بوجدان مانت وبوجه مانت، هذا هو سلوك ابن الرومي في مقاومة اماته الحياة له، أن يألف الموت!!

ستألف فقدان الذي قد فقدته كإلفك وجدان الذي أنت واجد[2]

أنه ارتياح إلي العدم والخواء، ويقين من لا جدوى مقاومة الثابت في المجتمع وفي الوجود علي حد سواء، لكنه رغم هذه الحكمة الثلجية لم يستطع أن يهدهد انفعاله، أو أن يصل إلي ذلك الهدوء المزعوم، ولعل ميتته في الجانب الشرقي من شارع" سوق العطش" – لعلها- رمز لملازمة العطش له، واقتران حياته- إلي مماته- بالحرمان:

أري ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل إلي الورود [3]

الاغتراب في شعر أبي تمام:

ولد أبو تمام- باتفاق كثير من الأراء- عام ١٩٠هـ، متوسطا قرنين غاية في الامتلاء، وعهدين من عهود الشعر، كان كل منهما تأريخا لزمنه ولاصحابه، أطلق مؤرخو الأدب ونقاده القدامي علي هذين العهدين: عهد الطبع، وعهد الصنعة.

وكان عهد الصنعة الذي عاصره أبو تمام هو تلك المرحلة التي ازدحم فيها الشعر بالمضامين الفلسفية والمصطلحات العلمية، ونهل من زخرف كثير من الفنون التي وفدت علي المجتمع العربي، كما كان يعني – عهد الصنعة- تصرف الشاعر تصرفا واسعا في أساليبه وأدواته الشكلية بما يلجنه إلي الساند من تلك الفلسفات والعلوم محتفيا بالزخرف والبريق وكل ما قد جعل بعض النقاد يتهمون الشعر وقتئذ بالتعمل والتصنع والاحتراف أو الخلو من التلقائية.

والحقيقة أنه في عصر أبي تمام لم يكن الشعر فقط هو الخاضع لمثل هذه العلوم والفلسفات الوافدة، كانت نفس العربي ذاتها خاضعة لهذا الوافد الذي

---

(١) الديوان/ الجزء الثاني/ ص٦١٢
(٢) الديوان/ الجزء الاول/ ص٨٠١.
(٣) الديوان/ الجزء الثاني/ ص٨٠٤

أقلق فيها الثبات والاعتياد والموافقة، بل أخضع كثيرا من المسلمات للتساؤل، ونجحت العلوم العقلية في أن تصبغ فكر العربي بالحياة والرغبة في الكشف، ومعرفة أسرار وجوده وحياته ومماته، ولا يعني هذا أن الرجل العربي كان في غفلة عن هذا قبل هذا العصر بل نعني أن رواج تلك الفلسفات عن طريق تلك المناظرات العامة وتكاكين الوراقين، بل وفي بيوت الغناء واللهو قننت هذه التساؤلات وحددت ماهيتها، ووضعت العربي علي عنوان واضح لقضاياه واهتماماته.

كان أبو تمام ابنا لهذا العصر الذي بدأ يطلب في الشعر الرؤية ، بعد أن كان الشعر يطلب الجمال والتأثير الجمالي ، وكان عقل أبي تمام قد نهل ولا شك من تلك البيئة الخصبة، وامتزج هذا العقل بتكوين الشعر المرهف، وامتزج أيضا بطبيعة حياته الخاصة وما بها من زوايا تزيد من حساسيته وقدرته علي التأمل...

استرعي شعر أبي تمام انتباه معاصريه- وانتباهنا الآن أيضا دارسين وباحثين لاحتفائه بالمعني الفلسفي واعتماده علي المعاناة والكد واستكشاف القضايا، بما انعكس علي خصائص هذا الشعر، فبدأ شعر يجمع السماء والأرض معا من خلال " نوافر الاضداد" والمقابلات والصور المعقدة الجديدة أو النادرة القائمة علي استكامدقيق عالي الحس لأدق جزئيات الحياة المادية، وجزئيات الحياة الداخلية للإنسان.. أبو تمام أذن لم يكن ينظر إلي الشعر بوصفه الهاما سريع المثول والاستجابة بل كان ينظر إليه دائما بوصفه عالما يرتحل إليه، ويجتهد من أجله، ويستدعي بالإرهاق والعرق، نظر أبو تمام إلي الشعر بوصفه رؤية واستكشافا لا للمتلقي فقط، بل للشاعر ذاته الذي أن أخلص في البحث جني معرفة ويقينا بالتأمل وازداد إدراكا....

وأن تأمل شعر أبي تمام يضعنا علي محور يكاد يكون رئيسيا لهذا الشعر، ويكاد يكون هو الرؤية والكشف أو الإطار العام الفلسفي إذا جاز هذا التعبير- الذي خرج به أبو تمام من طول النظر إلي الحياة وطول التمرس بطباعها، هذه الرؤية هي أن " التغير والتجديد خلق جديد واغتراب" أو هي " الاغتراب النابض بالحياة " ، والاغتراب المدفوع بالحياة " يقول أبو تمام:

أولا تري الأشياء إن هي غيرت سمجت وحسن الأرض حين يغير[1]

الثبات موت، وحب التغير دفاع ضد الموت، وطلب للنماء:

وطول بقاء المرء في الحي مخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
ألم تر أن الشمس زيدت محبة إلي الناس أن ليست عليهم بسرمد[2]

وهنا نري وجها أو معني من معاني الاغتراب هو: الخلق والتفرد والثورة، لذلك ربط بين الاغتراب والشمس: الحركة والحياة والنمو.

نظر أبو تمام إلي الإنسان من خلال هذه الرؤية الخاصة التي نظم الحياة في سلكها، نظر إلي الإنسان فوجده أحق كائن بالتميز والوجود الكريم، لذلك لم يحصر رؤيته للتغير عند حد الارتجال الخارجي أي الارتحال المكاني، بل رأي التغير والاغتراب أيضا في الارتحال الداخلي النفسي حين يصر الإنسان علي وجوده الأصيل وبرفض كل ما هو مشوه مبتور، وقد رفض أبو تمام ما رآه في مجتمعه من العلاقات الميتة الزائفة، ورأي أصحابها مائتين ولو كانوا أحياء، أما العلاقات الصحيحة فخالد أصحابها وإن طواهم الثرى[3].

والعلاقات الزائفة تدفعه إلي مزيد من البحث عن الحياة، عن الصدق، تدفعه إلي رحلة في باطنه وباطن الوجود رغبة في النمو:

فلم أجد الأخلاق إلا تخلقا ولم أجد الأفعال إلا تفضلا
وأصرف وجهي عن بلاد غدابها لساني مشكولا وقلبي مقفلا[4]

والارتحال لطلب التغيير ارتحال للمزيد من القوة، القوة في مواجهة الزمن، وعوامل الافناء، فالإنسان في عين أبي تمام ليس جديرا بهذه التسمية أن

---

(١) ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي تحقيق د. محمد عبده عزام دار المعارف بمصر سلسلة ذخائر العرب/ ١٩٥٧م. نسخه من خمس مجلدات المجلد الثاني / ص ١٩٤.

(٢) ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي تحقيق د. محمد عبده عزام دار المعارف بمصر سلسلة ذخائر العرب/ ١٩٥٧م. نسخه من خمس مجلدات المجلد الثاني / ص ١٩٤.

(٣) الديوان / الجزء الثاني/ ص ٢٣.

(٤) الديوان/ الجزء الأول/ ص ٤٠٦.

لم يقاوم مصيره، ونكباته، وكل ما يزحف به إلي الظلام، يقول:

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق ... وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددنني ... جريحا كأني قد لقيت الكتائبا
ومن لم يسلم للنوائب أصبحت ... خلائقه طرّا عليه نوائبا[1]

وكأنه يري الألم مزيدا من النضج الإنساني، ومزيدا من الخلق والإحياء والمعرفة.

وفي سبيل المزيد من التجديد، المزيد من الاغتراب، والحيوية والمجد، لا يضن أبو تمام علي هذه الحياة الخاصة براحلته، فهو غير قانع بواقعه، وبه عظيم الأمل في حياة جديدة يرتضيها لذلك أشرب راحلته هذا الهم، فبدت وكأن هذا الهم يزجيها في الصحراء[2] بينما يعتليها أبو تمام وقد بدا من شوقه إلي التفرد والتواجد سقيما شاحبا[3]. لقد توحد بالراحلة لأنها وسيلته إلى الحياة .

إن الحياة في شعر أبي تمام ليست هي الوداعة والهدوء والدعة، بل هي المغامرة والاستكشاف والمجهول، هي الحركة الدائبة والناقة التي لا تريح ساقيها:

فأطلب هدوءا بالتقلقل واستثر ... بالعيش من تحت السهاد هجودا[4]

هذا المنهج في الحياة أورث أبا تمام القلق والتمرد والحرمان، لأنه عشق الحياة بما لا يستطيع شئ أن يشبع هذا العشق، وطلب الكمال الإنساني، والقدرة العالية بما تقصر عنه طاقة الإنسان، لذا ظل أبو تمام غير قانع، بل لهج بالشكوى والحزن، علي الرغم من أنه لم يعان ما عاناه غيره من ضيق الرزق وامتناع الشهرة، فقد كان ميسور الحال، ذائع الصيت مشهودا له بالتفرد والشاعرية، لكنه طلب " اليوتوبيا" ولم يقنع بمثل هذه الحياة التي يوحي سطحها بالاكتمال كذبا وقد وصف معاناته وصفا دقيقا في هذا البيت حيث يقول:

---

(١)الديوان / الجزء الثالث/ ص ١٠٥، ١٠٦.
(٢)الديوان/ الجزء الأول/ ص ١٤٧.
(٣)الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٥.
(٤)الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٢٧.

ولو حاردت شول عزرت لقاحها لكي حرمت الدر والضرع حائل[1]

وبهذا فهو يختلف عن بشار وابن الرومي، فاغترابه وليد امتلاء من الحياة لا حرمان منها، لكنه أيضا وليد سعي إلي حياة غير الحياة، ومجد غير المجد:

غربته العلي علي كثرة الناس فأضحي في الأقربين جنيبا [2]

بذات الرؤية نظر إلي الناس فصنفهم صنفين: قانع، وثائر، فالقانع يعيش كما تريد الحياة له، ويستسيغ الضحالة إذ لن ترهقه يطلب الأعماق، أما الثائر فهو يبحث عن حياة يعيشها هو كما يريد لا كما تريد، فهو يتألم من الأسطح، وتحدوه الرغبة الدائمة في المعرفة والترقي والكمال، وقد هال أبا تمام أن رأي مجتمعه لا يستطيع التفرقة بين هذين الصنفين من الناس، بل هو أحيانا يأخذ ثمار الثائر إلي القانع الراكد عن جهل وعجز، يعطي القابع مجهود المكدود:

وجد بها قوم سواي فصادفوا بها الصبح أعشي والزمان مغفلا
كلاب أغارت في فريسة ضيغم طروقا وهام أطعمت صيد أجدلا
فليس الذي قاسي المطالب غدوة دبيدا، كمن قاسي المطالب حنظلا[3]

وهو يكرر ذات المعنى في سياقات المديح[4] ، تتعقد معاني أبي تمام، وتتعمق رؤيته حين يري أن الارتحال الذي هو طلب الكمال- يراه- شبيها بـ وت! وكأنه يرى الكمال فناء، فهل بدت الحياة الإنسانية لأبي تمام متعذرة علي المثال والتناسق.. أو أن تناسقها لا يكتمل إلا بالموت؟ هو يصف الرحلة بقوله:

هي منية إلا سلامة أهلها من خلتين، من الثري والمأتم[5]

---

(١)الديوان / الجزء الأول/ص ٤١٦.
(٢)الديوان / الجزء الثالث/ص ١٢٩.
(٣)الديوان / الجزء الأول/ص ١٦٩.
(٤)الديوان / الجزء الثالث/ص ١٠٥، ١٠٦.
(٥)الديوان / الجزء الثالث/ص ١١٧

إن أبا تمام يري التفرد والسعي وراء الوجود الخاص، اغترابا شبيها باغتراب المائت ، فالهجر بين الأحبة عنده رحيل يفضي إلي الموت[1] أو هو أحد طرائق الموت.

وإن رغبة أبي تمام في الحياة تعكس إحساسه الحاد بالزمن، هذا الإحساس يدفعه إلي مقاومة التقولب والركود لأنهما موت، يدفعه إلي طلب التغير والتعرض الدائم للشمس نفيا للعفن ونفيا لقوي الزمان، لكنه يدرك أن هذا السعي والارتحال والتغير قتل للزمان، والتهام للوقت، هل أدرك شاعرنا مدى قسوة هذه الاشكالية الميتافيزيقية . أن أبا تمام حين يقول:

وليل بت اكلؤه كأني ... سليم، أو سهرت علي سليم [2]

فإنه يطبع أمامنا إحساسه بالوقت، لأنه يبدو مراقبا لذاته داخل الزمن، ومراقبا للزمن داخل ذاته في آن واحد، وفي هذه المراقبة تسيطر عليه مشاعر الرهبة والخوف والمعاداة للقوي الخارجية التي تواجه الإنسان لأنها ليست قوي متكافئة معه، وإذا كان أبو تمام يستدعي كل قواه قبالة الركود الاجتماعي والاضطراب في جنبات الواقع صانحا يطلب التغيير والرحلة والسعي المتواصل، فإنه يكاد يخور قبالة هذه التحديات غير الإنسانية، فيقف متأملا شيبه ليراه مزيدا من النضج- شعلة- هذه الشعلة التي قد تكون المعرفة والخبرة التي نالت منه أولا وألمته فيقارن بين تلك السذاجة الوادعة أو تلك الجهل الذي كان يرعاه صغيرا وما كان فيه من سعادة معه وبين المعرفة القاتلة ليخلص إلى أن السعي الإنساني إلي المعرفة سعي إلي مزيد من التمزق والألم والقلق، ووداع لكل صفاء ووداعة وهدوء:

شعلة في المفارق استودعتني ... في صميم الفؤاد ثكلا صميما
غرة بهمة ، ألا إنما كنت ... أغر أيام كنت بهيما
دقة في الحياة تدعي جلالا ... مثلما سمي اللديغ سليما[3]

أن صراع الإنسان ليست منه جدوى قبالة الأمور الحدية: الزمان والموت ، هكذا يقول الشاعر :

---

(١)الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٥٠.
(٢)الديوان / الجزء الأول/ ص١٦٦
(٣)الديوان / الجزء الثالث/ ص٢٢٣، ٢٢٤

كل داء يرجي الدو ء له إلا " م" الفظيعين. ميتة ومشيبا[1] .

أن المعني الذي أمسك به أبو تمام بعد طول تأمل في الحياة هو أن السعي الدائب إلي الحياة سعي مخلص إلي الموت، هكذا وجد نفسه بنزوعه إلي التجديد والارتحال يقترب من الموت أسرع من غيره، ولعل صراعه بين هذه المتناقضات كان لب توجهه إلي" نوافر الاضداد" في شعره، أو كان هو مبعث هذه النوافر التي هي انعكاس للتوتر النفسي والصراع الفكرى معا: كذلك فإن هذه المعاني كانت مما استقر في نفس أبي تمام من احتكاكه العقلي" بالكندى الفليسوف الذي كان يرى أن ما كتب علينا من ألم وموت هو من مقومات إنسانيتنا، فلو لم يكن موت لم يكن إنسان، ولقد كان من الذين يؤكدون أن حد الإنسان أنه " الحي الناطق المائت".[2]

كذلك كان صراع أبي تمام مع المرض في فترة مبكرة من السن من عوامل حساسيته المرهفة تجاه قضايا الموت والحياة، كما عاني الموت قريبا منه حين ثكل أولاده وأخوته وبعض اعزائه، أي راي الموت أقرب مما كان يتصور فامتلأ ذعرا منه وتصميما علي المقاومة والهرب" ولقد تنبه البحترى إلي قضية الموت في شعر أبي تمام، وكان أن قال كلمته المشهورة فيه وهي " أنه مداحة . نواحة" وفي الحقيقة لقد أكثر أبو تمام من النواح علي نفسه وأهل بيته والصفوة من رجال عصره"[3].

ونرى الموت رغم ذلك يتسمي باسم الوطن في شعر أبى تمام:

حنّ إلي الموت، حتى ظن جاهله بأنه حنّ مشتاقا إلي وطن[4]

فهل يحدد لنا أبو تمام بهذا الحنين جهة انتمائه، وازدواجية تأملاته؟ هذا الحنين قد يكون للأعزاء الذين ارتحلوا إليه وقد يكون تسليما بمنطق الوجود الذي يرى حتمية أن يردف الموت الحياة فالشاعر هنا يحاول ألا يقاوم المحال بل يحاول الائتلاف معه والتسليم به، يقول أبو تمام :

---

(١) د. عبده بدوي. أبو تمام وقضية التجديد في الشعر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

(٢)المرجع السابق / ص ٦٣.

(٣)الديوان / الجزء الثالث/ص٣٠٠.

(٤)الديوان / الجزء الثالث/ص٢٢٥.

سيأكلنا الدهر الذي غال من نري ولا تنقصي الأشياء أو يأكل الدهر

وأكثر حالات ابن آدم خلقة يضل إذا فكرت في كنهها الفكر[1]

أنها الرغبة الملحة في القوة ، القوة التي قد تصلح أن تكون الرفض والتمرد فيما يخص أمور الحياة ، ولكنها لا تصلح إلا أن تكون القبول فيما يخص الموت ، وبذلك يؤكد أبو تمام أنه يرتحل ماديا ومعنويا ، داخل الزمان وخارج المكان سعيا وراء حلم واحد : الإنسان المكتمل الذي قد يزيده تقبل وضعه الميتافيزيقي نبلا وقوة وبسالة :

متى ترع هذا الموت عين بصيرة تجد عادلا منه شبيها بظالم[2]

الاغتراب في شعر أبي الطيب المتنبي :

أبو الطيب المتنبي نفس مغامرة تعشق السيادة والجاه والرغد وهذا العشق هو قضيتها الحقيقية الوحيدة مع الحياة ، وهو أيضا مبعث شقائها وغضبها وتمردها ، تماما كما وصف هو نفسه في هذا البيت القائل :

أتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهي النفس وجده [3]

وقد بدت مخايل هذه القضية في سن مبكرة من حياة المتنبي " قال في صباه ، وقد قيل : ما أحسن شعرك :

لا تحسبن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على قتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السيال [4]

إن وصف المتنبي لهذين البيتين بأنهما من أفضل شعره ، في هذه السن وصف يدل على ما كان يهمه من قضايا ، أو ما حدده من هدف لحياته اعتقد أن بيتيه هذين قد عبرا عنه بدقة .

---

(١) الديوان / الجزء الثالث/ ص٢٤

(٢) الديوان / الجزء الثالث / ص ٢٥٧ .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي / شرح أبي البقاء العكبري مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٦ م م نسخة في أربع أجزاء الجزء الثاني / ص ٢٢

(٤) الديوان . الجزء الثاني ص ١٥٩

وقد وقفت بعض الموانع في وجه طموح المتنبي ، وعانى منذ صغره الإحساس المهين بضعة مكانته الاجتماعية ، وما يحيط بنسبة من شبهات ، وما يرزح تحته من فقر ، وكان " في بلدته الكوفة دائم البترم بأحزانه واحقاده وفقره ، وكان دائم الثورة علي تلك الأوضاع ، كثير العجب من هذه الحياة ، وما يرى ويسمع ، وإلي جانب هذا عظيم التقدير لعلمه وذكائه :

لم الليالي التي أخنت علي جدتي ... برقة الحالة ، وأعذرني ولا تلم

أرى أناسا ومحصولي علي غنم ... وذكر جود ومحصولي علي الكلم

أن هذا الشعور بالحاجة والظلم أوصل المتنبي إلي ما وصل إليه [1]

أن كل آلام المتنبي تتولد من يقينه بأنه دائما أكبر مما يعطي ، و أعلى قدرا مما يملك ، وأنه لم يصل بعد إلي بغيته وإلي ما يستحقه من هنا امتلأ ديوانه بنغمة تعظيم الذات وإكبارها أمام الذوات الأخرى ، أو الأغيار ، حتى لو كان الدهر نفسه [2]ومن هنا أيضا امتلأت أبياته بروح التحدي والاستفزاز والرغبة في التحطيم والامتلاك، فقد كانت نفس المتنبي تختلف عن نفس بشار بن برد ، وأبي نواس ، وأبن الرومي ، وأيضا تختلف عن نفس أبي العلاء المعري – كما سنرى – وإن كانت تشابه نفس أبي تمام إلي حد ما ، فلم يكن يرى الهزيمة نهاية المطاف ، ولم تكن العزلة في مفهومه تعني الصمت والاستسلام واليأس – لم تكن – إحدى الحلول المقترحة لقضاياه ، بل كان سبيله الوحيد إلي الحياة ، الالتحام والسعي الدائب بكل وسيلة وراء الاستحواذ ، يقول :

ليس التعلل بالآمال من أربي ... ولا القناعة بالإقلال من شيمي

وما أظن بنات الدهر تتركني ... حتى تسد عليها طرقها هممي [3]

ولم يفلح الواقع المحيط به أن يتدنى بطموحه إلي ما هو أقل من النجوم ، ولم يفلح في إناخة راحلته ، بل كان علي طول ديوانه – يصعد بها إلي آفاق النسور ، ولم يفلح الزمان في إخافته ، بل أعلن في شعره أنه سيطاعن خيل الزمان

---

(١) نور الدين يوسف نور الدين / الشعراء الثلاثة / دار الأنصاف ولم تذكر سنة النشر / ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) الديوان / الجزء الثاني / ص ٨١ .

(٣) الديوان / الجزء الرابع / ص ٣٩ .

ذاته[1] وسيتصدى للدهر بالعتاب ، وبالوعيد أن إن لم يجد العتاب.[2]

إن طموح المتنبي جعله لا يولي انتماءه إلا لمن يبدو قادرا علي تحقيق هذا الطموح وترجمته إلي واقع ، ومن ثم فهو لا يعرض إلا عمن يقصر عن تلبية نداء هذا الطموح ، فالمتنبي لم يكن ذا روح جمعية تألف الناس ، وتفتذي من وجودهم الروحي ، بل كان يرى الصلة إنسانية مكسبا وإفادة عاجلة أو آجلة ، وكان علي استعداد من أجل هذه الصلات المفيدة أن ينبذ كل صلة له بالانتماء الحقيقي المتولد من الولاء والحب والحياة المشتركة ،

والاغتراب عن المكان والاغتراب عن الأهل قربان رخيص يدفعه عن طيب خاطر إذا ما بدت له مخايل المجد في أرض أخرى ، يقول المتنبي:

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافورا فما يتغرب [3]

ويمتلئ ديوانه بهذه المعاني التي يحدد لنا فيها بوضوح كامل طبيعة انتمائه وتوجهه في الحياة ، ويحدد أيضا قضيته يقول :

غنى من الأوطان لا يستفزني إلي بلد سافرتُ منه إيابُ[4]

ولا نجد في ديوان أبي الطيب ذلك الألم المتولد من الانفصال عن المجتمع ، أو ذلك الحنين إلي الأنفاس البشرية ، فهو رجل ذو مشاعر صلدة لا يبهجه إلا ما يغذى مطامعه ويحققها ، لذلك فالزمان والمكان والإنسان جميعا ليسوا إلا أدوات هذه المطامع :

كلُ امرئ يُولى الجميلَ محببُ وكلُ مكان ينبتُ العزّ طيبُ [5]

وليس الزمان والمكان والإنسان فقط أدوات تحقيق أحلامه ، بل إن نفسه ذاتها أداة رخيصة في سبيل هذا الحلم ، إذ لا نعتقد أن المتنبي كان يستشعر المعني الحقيقي لإكبار الذات وإعزازها ، فهو لم يضن بها علي أي ممدوح مهما تطامن قدره ، وقد أراقها علي باب كافور رغم عدم قناعته بأنه أهل للملك والسيادة ، لكنه وصل ذاته بذات الممدوحين ، وعلق حركتها الداخلية بهم ، فهم

---

(١) الديوان / الجزء الأول / ص ٤٣
(٢) الديوان / الجزء الثاني / ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣) الديوان / الجزء الأول / ص ١٨١
(٤) المصدر السابق الجزء الثاني ص ١٥٩ .
(٥) السابق / ص ١٨٣ الجزء الأول .

وحدهم كفيلون بقتل أحزانه وهمومه[1] إذ هم وحدهم الانتماء .

لذلك لا نعتقد أيضا أن المتنبي كان من الشعراء الذين يغالون في المديح بحثا عن المثال في الممدوح ، أو سعيا وراء (يوتوبيا) ما ، فالمتنبي رجل كان لا ينظر إلا إلي الواقع ، وكان يستطيع التخطيط له بمهارة وحنكة ولم ، يكن ليلق بتجاربه أن يكون جاهلا بمن يمدحه ، ولعل موقفه مع كافور الإخشيدي في مصر أن يكون دليل نفي لسعيه وراء المثال ، فكافور الذي مدحه منذ قليل بأنه ليث والملوك ذئاب[2] وغير ذلك من الصفات العالية - ، عاد فنعته باسم الكلب صراحة في[3] هجاء متقذع بعد أن أعرض عن أمانيه وبدا له تخاذله عنها ، وأن ما يقال عن اعتداد المتنبي بنفسه أمام سيف الدولة الحمداني وفاتك الشجاع وكيف أنه كان الشاعر الوحيد الذي ينشد الشعر جالسا بالقرب من سيف الدولة إن ما يقال من هذا كله لم يكن اعتدادا صحيا بالذات – اعتدادا واعيا متزنا ، بل كان استغلالا ذكيا لطبيعة المكان والإنسان اللذين يواجههما ، فقد كان سيف الدولة بحاجة إلي قلمه ،مثلما كان هو في حاجة إلي مجد سيف الدولة واسمه وحروبه ، أما فاتك الشجاع وغيره ، فقد كان المتنبي قد وصل إلي صيت شعري من ملازمته لسيف الدولة يمكنه من املاء شروط تشبع عنده الحاجة إلي الابهار والدوي ، وإغاظة الاعداء وابداء الثقة بالذات ، ليواجه بكل هذا ما ترسب في نفسه من نقائص ومعاناة لظروف نشأته .

وكما حدد طموح المتنبي له ماهية الأهل والوطن والأرض وطبيعة القضايا التي تهم الذات ، كان هذا الطموح الذي لاقى كثيرا من العثرات والإعاقة عن الوجود الكامل – كان العامل الرئيسي لانفصال المتنبي عن مجتمعه ، وإحساسه بالاغتراب فيه وملازمته لشعور قوى طوال حياته هو أنه لم يوجد حيث يريد :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا[4]

ويسقط المتنبي إحساسه بالإحباط والفشل علي قطاعات المجتمع كلها ويشكو خلو المجتمع من الصدق والوفاء والخلال الكريمة ، فينكر إمكانية وجود

---

(١) الديوان / الجزء الثالث /ص ١٧١ .
(٢) الديوان / الجزء الأول /ص ١٨٢ .
(٣) الديوان . الجزء الأول . ص ١٩٧.
(٤) الديوان . الجزء الأول . ص ١٧٩

الصديق[1] ويدعو إلى العزلة والرحيل عن المجتمع ، الذي لا يسير وفق منطق وهدى ، وكيف وملوكه أرانب[2] والمنعمون فيه لا يستحقون هذا النعيم ، ويصف حياته في هذا المجتمع بأنه يعيش عيشة صالح في ثمود ، ويتمثل مقام المسيح بين اليهود [3].

ونعتقد أيضا أنه في المغالاة أن نلبس المتنبي الاهتمام بقضايا المجتمع وقضايا العروبة والانشغال بصالح الجنس العربي ، من المغالاة في اعتقادنا – أن نحمله عبئا هو برئ منه ، وان نفسر هجانياته تبعا لهذه المغالاة ، إلا أن نتصور أن حدته في تشريح المجتمع نابعة من شغل بهموم الخارج ، فالهم الوحيد الذي يسيطر عليه هو طموحه الشخصي ، ورغبته في السيادة والحكم ، ونعتقد أن هذه الرغبة ، كانت وراء حادث تأليبه للأعراب ضد الحاكم في الكوفة ، وما ترتب عليها من سجنه في سن صغيرة ، فهذا الحادث يؤكد سعيه وراء مطمع شخصي ، إذ لو كان سعيا وراء أيديولوجية أو هدف قومي ، ما كان المتنبي يخرج من السجن مستغفرا مقسما علي أنه موشى به ، وعلي أنه لن يعود لمثل هذا ، ثم أين كانت أحاسيس المتنبي بسيئات الوضع في حكم البلاد الإسلامية حين مدح الأخشيدي ، لقد بدت له سيئات الوضع السياسي في مصر فقط عندما أحبط أمله الشخصي ، لذلك كله لا نعتقد أن اغتراب المتنبي كان نابعا من انشغاله بقضايا مجتمعه وقضاياه معا ، بل كان نابعا من انشغاله بقضاياه هو فقط ، وعلى الأدق من صراعه بين ما يريد وما يحقق ، وقد صور هذه القضية تصويرا دقيقا في قصيدته التي قالها عند خروجه من مصر هاربا محبطا :

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا ... أنا الغني وأموالي المواعيد
إني نزلت بكذا أبين ضيفهم ... عن القرى ، وعن الترحال مردود[4]

هكذا كان شعوره في كل أرض ترده جانح الأحلام .

ومن المتناقض في شعر المتنبي أن نراه يبكي حاجته إلي الصديق وإلي

---

(١) الديوان . الجزء الرابع . ص ٢١٢ .
(٢) الديوان الجزء الرابع . ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١
(٣) مجاهد عبد المنعم مجاهد . المتنبي والاغتراب مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٧٨م / ص ٥٩ .
(٤) الديوان الجزء الثاني ص ٤١

المجتمع الإنساني السوي ، بينما لم يسع لذلك ، يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا[1]

إن شعر المتنبي " هو رؤيته الذاتية ، وهو حوار مستمر بين الطموح الذي لا يعرف غاية ، والواقع الواهن الذي لا يقدر أن يساير هذا الطموح"[2].

ومن هنا كان انطلاق المتنبي أيضا إلي القضايا الميتافيزيقية المختلفة التي أرهق بها وقد ساهمت نشأته الأولى في صبغة بنضج المعاناة والتأمل ، وقد لاحظ ابن رشيق أن شعر المتنبي يدور في معظمه حول شكوى الدهر ، وذم الزمان ، وهي ملاحظة دقيقة واضحة لمن يتأمل هذا الشعر .

الزمان في عين المتنبي هو منغص العيش[3] وهو القوة التي تعطل وجوده في الحياة ، أما الحياة ذاتها فقد وصفها وصفا أورثه أبا العلاء المعري بعد ذلك يقول :

فذى الدار أخون من مومس وأخدع من كفة الحابل
تفاني الرجال علي حبها وما يحصلون علي طائل[4]

والدهر في عين المتنبي مطارد لحوح لا يكل من وضع العثرات أمام طريقه :

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد[5]

والموت هو نهاية الطموح في شعره ، هو الحد من السعي ، لذلك فهو يسخر من إعدادنا للسوابق والرماح ، إذ لا يجدي هذا الإعداد معه[6] .

ونظرا لأن رؤية المتنبي للموت رؤية نابعة من الخوف علي طموحه الشخصي ونابعة من مقاومته لكل ما يعطل هذا الطموح ، نرى كثيرا من قصائد الرثاء في

---

(١) الديوان . الجزء الرابع . ص ٢٨١ .
(٢) د . محمد زكي العشماوي . موقف الشعر من الفكر والفن في الحياة العباسية ص ٢٣٩ .
(٣) الديوان . الجزء الرابع . ص ٢٣٩ .
(٤) الديوان الجزء الثالث . ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٥) الديوان . الجزء الأول ص ١٨١ .
(٦) الديوان الجزء الثالث . ص ٨ .

شعر المتنبي تكاد تخلو من الانفعال الصادق الحقيقي بالموت ، كقصيدته في رثاء محمد ابن اسحق التنوخي[1] ورثاء والده سيف الدولة[2] وأخت سيف الدولة الصغرى إذا تغلب على هذه القصائد المعاني التقليدية للرثاء ، ويبدو فيها الشاعر منفصلا عن الموقف راثيا من الخارج دون أن يمسه الموت ، ولعل المتنبي يضيف عاملا آخر لهذه الظاهرة في رثائياته ، حين يقول :

وما استغربت عيني فراقا رأيته ... ولا علمتني غير ما القلب عالمه
فلا يتهمني الكاشحون فإنني ... رعيت الردى حتى حلت لي علائمه[3]

وكأن معاناته وطول لهاثه وراء آماله أورثاه شيئا من الصلادة والتجهم العاطفي ، ومنحاه كثيرا من التماسك أو القسوة ، لكن الموقف من الموت يتغير ، حين يمس الموت الذات ويهددها بالتعطيل ، حتى يقف المتنبي أمام المشيب – نذير الموت – قبل أن يمس فردية[4] ناعيا شبابه قبل أن يرحل عنه ، ويصف الموت بأنه سارق[5] سالب لإشراق الوجود الإنساني .

ويبدو أنه من المحتم على كل شاعر تتعقد ظروف حياته ، وتتشابك معاناته من هذه الظروف مع معاناته من المحيط الخارجي يبدو أنه من المحتم عليه أن يكون منقسم النفس قبالة الموت ، مشتت الرؤى ، فالموت يلبس عنده ثياب الشيطان وفي ذات الوقت يرتدي بهاء الملائكة ، لأن معاناته في الحياة تدفعه لأن يرى الموت تارة خلاصا ، وتارة موقفا حديا يقيد الوجود ، ولعل هذه المعاناة هي التي دفعته لأن يشكو السأم من طول بقائه في الحياة ، بينما لم يكن قد تعدى العشرين من عمره[6] ولعلها أيضا هي المودية به إلى الإحساس باستواء كل الأشياء ، وفقدان الرغبة فيها معا ، أي الإحساس باليأس واللاجدوى :

ألا لا أرى الأحداث حمدا ولا انما ... فما بطشها جهلا ولا كفها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى ... يعود كما أبدى ويكري كما أرمي[1]

---

(١) الديوان الجزء الثاني ص ١٢٨
(٢) الديوان الجزء الثالث ص ١١
(٣) الديوان الجزء الأول ص ٣٢٢
(٤) الديوان الجزء الثاني ص ٣٣٦
(٥) الديوان الجزء الثالث ص ٤٨
(٦) الديوان الجزء الأول ص ١٠

ويجد المتنبي في جهل الإنسان بحقيقة وجوده ، كما يجد في النهاية الفاجعة لهذا الوجود مبررا لأن يتزيى بزي عمر الخيام متخذا من اللذة والاستهتار واللامبالاة – الظاهرية – منهجا قويما ما دامت الحياة ذات نهاية معروفة :

أنعم ولذ فللأمور أواخر أبدا إذا كانت لهن أوائل[2]

وحين يمدح أبا المنتصر شجاع ، كان المتنبي في مرحلة الصبا ، وعلى الرغم من هذه السن الفتية وعلي الرغم مما يقتضيه المديح من معان وسياق نفسي ، يستهل هذا المديح بتقرير حقيقة الموت وحتمية انتسابنا الطبيعي إليه ، وهو بهذا الاستهلال لا يحد من جبروت الممدوح فحسب ، ولا يقلد من هم أكبر منه سنا ، بل هو يعبر عن ذاته التي عركتها الظروف القاسية من فقر واضطراب نسب وحمل لنفس عظيمة الرجاء في الحياة ، يقول في مستهل هذه المدحة :

ابني أبينا نحن أهل منازل أبدا غراب البين فيها ينعق
نبكي علي الدنيا ، وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
والموت آت والنفوس نفائس والمستقر بما لديه الأحمق[3]

ويسوق المتنبي هذه التأملات ، لا في معرض المديح فقط بل حين يشبب بالحبيبة ، ويرجوها أن تروى ظماه وأن تدع دلالا يقتل العمر ويخيب الرجاء ، ولا يجد حجة يدفعها بها إلي البذل سوى أن يؤكد لها أن الحياة إلي زوال وأن الحسن إلي فناء :

زودينا من حسن وجهك ما دام فحسن الوجوه حال تتحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا فإن المقام فيها قليل[4]

وكثيرا ما تسيطر علي المتنبي ملامح الموت ، فيرى في الوجه الجميل

---

(١) الديوان . الجزء الرابع . ص ١٠٢ .
(٢) الديوان . الجزء الثالث . ص ٢٥٣
(٣) الديوان . الجزء الثاني . ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
(٤) الديوان الجزء الثالث . ص ١٤٩ .

جمجمة الماثل وحقيقة الإنسان البشعة ، وكثيرا ما تنتهي رؤاه إلى العدمية.

وحين يتأمل القتلة المستغرقة في طي الصحراء ، يخلع عليها رداء إنسانيا ، فيراها هي المجتمع البشري بأسره راحلا إلي الموت ، وكأنه حين يودع الحبيبة المعتلية لهذا الركب يودع الحياة بسرها في معالجة رمزية ، يقول:

ليس القباب علي الركاب وإنما من الحياة ترحلت بسلام[٢]

أن العزلة المضروبة حول المتنبي والتي فرضها عليه طموحه عزلة جعلته يرى الحياة كلها مقام غرباء ، وكأنه يلبس اغترابه كل الوجود :

بدار كل سكانها غريب طويل الهجر منبت الحبال[٣]

وحين يقول المتنبي :

ومن يك ذا فم مر ، مريض يجد مرا به الماء الزلالا[٤]

حين يردد المتنبي هذا المعنى ، فإنه يكون قد طمأننا إلي أن انشغاله بقضيته الذاتية ، وإحساسه بفشله الشخصي كان مصدر انفصاله عن الواقع ورفضه له ، وكان مصدر عدائه لما عادي ، وتقربه ممن تقرب ، كما يكون قد لفتنا أيضا إلي أن هذا الفشل الشخصي هو مصدر معاناته للقضايا الميتافيزيقية ، وإنشغاله بموقف الإنسان من الحياة والموت ، أن المتنبي بترديده لهذا المعنى قد وضع أيدينا علي منبع قضاياه وماهية اهتماماته وملامح اغترابه .

أن بشار بن برد وأبا نواس ، وابن الرومي ، وأبا تمام ، وأبا الطيب المتنبي شعراء عانوا الاغتراب ، وعايشوا مشاعره ، وقد اختلف مصدر اغتراب كل منهم عن الأخر ، فكانت قضية الصدق وصراع أبي نواس مع المجتمع من أجلها ، مصدر اغترابه ، وكان طموح المتنبي وارتطامه بالمجتمع وقيوده من جهة ، وظروف حياته الخاصة مما جعله يرفض الواقع ويتمرد عليه ، أما شره ابن الرومي للحياة فكان شرها لا يعدله إلا الحرمان من هذه الحياة ،

---

(١) الديوان الجزء الأول ص ٢١٢
(٢) الديوان الجزء الرابع ص ٨
(٣) الديوان الجزء الثالث ص ١٥
(٤) الديوان الجزء الثالث ص ٢٢٨

ومن ثم امتلأ بالنقمة علي الوجود كله . ولعل عوامل اغتراب أبي تمام أن تكون متميزة حيث اندفع إلي الاغتراب لحلمه اللحوح أن يصل بالإنسان إلي قمة الكمال بالدعوة المتواصلة إلي التجديد والتغيير والنمو الخالق ، بالحركة والسعي والفعل النبيل ، ولابد لمثل هذا الحلم أن يصطدم بما يتضمنه الواقع من تشوهات ، أو حقائق لا تصل إلي رقي الأحلام ونصاعتها . ولعل حقيقة الموت أن تكون المناوئ الأفخم لمثل هذا الحلم الراقي في حياة أبي تمام .

وإذا كان الشعراء المغتربون في العصر العباسي – في هذه الصفحات – قد وقعوا في شرك الاغتراب للمفارقة بين الحلم والواقع أو الامكان والمشتهي ، فهم يشتركون في صفة أخرى أيضا ، أو في زاوية أخرى من زوايا الاغتراب ، وهي الزاوية الخاصة بالابداع ، فهؤلاء الشعراء ، قد أحدث كل منهم في عصره وقفه فنية أو دهشة فنية وأثار جدلا بطرائقه الشعرية الجديدة ، بل نستطيع أن نقول أن كل شاعر منهم قد أحدث ما يشبه الخصومة الفنية في عصره حيث انقسم هذا العصر بين مؤيد لشعره ورافض له ، علي مستوى المضمون والصياغة . ولا يزال الجدل قائما حولهم إلي الأن ،.وما زال شعرهم يثير القضايا لثرائه وجدته وخصوصيته حتى لقد عد منحي في عصره ، وأرخ به للشعر ، وكأن اغتراب الشاعر قد وجد ما يعادله في الشعر وهذا منطقي – وكان الشاعر وشعره كيانا واحدا يعكس كل منهما ما يبدو علي صفحة الأخر من قلق وتغيير وكأن اغتراب الشاعر له وجه إيجابي هو صورة هذا الاغتراب في الشعر ، وامتلاء هذا الشعر بحيوية وطاقة ونسيج ودم جديدين مدهشين علي طول الزمان وكأن الشعر يعوض صاحبه عما لاقاه كإنسان وشاعر من معاناته للأغتراب .

وفي الصفحات التالية نقف عند اغتراب أبي العلاء المعري لعلنا نلمس خصوصية هذا الاغتراب وطبيعته وعوامله ونتائجه ، وما انفرد به في كل هذا عن الشعراء المغتربين في هذا العصر .